لقطات

خالد الذييب

العبيكان
Obeikan

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الذييب، خالد عبدالرحمن محمد

لقطات./ خالد عبدالرحمن محمد الذييب.- الرياض، ١٤٢٩هـ

١٠٠ ص؛ ١٤ × ٢١ سم.

ردمك: ٤-٤١٤-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

١. القصص القصيرة العربية - السعودية أ. العنوان

ديوي ٨١٣,٠١٩٥٣١ ٦١٥ / ١٤٢٩

رقم الإيداع: ٦١٥ / ١٤٢٩

ردمك: ٤-٤١٤-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر العبيكان للنشر

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ - ٢٩٣٧٥٨١/ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص.ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

التوزيع: مكتبة العبيكان

الرياض-العليا-تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ -٤٦٥٤٤٢٤/ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إكترونية أم ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي» أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتوى

الموضوع	الصفحة
اللقطة الأولى: بكل هدوء	٧
اللقطة الثانية: غرقى...	٩
اللقطة الثالثة: تعرِّي	١١
اللقطة الرابعة: القصر	١٣
اللقطة الخامسة: حوار	١٧
اللقطة السادسة: اسمها	١٩
اللقطة السابعة: البعبع	٢١
اللقطة الثامنة: اجتماع	٢٥
اللقطة التاسعة: توقيت	٢٧
اللقطة العاشرة: نصيحة	٢٩
اللقطة الحادية عشرة: مياه راكدة	٣٣
اللقطة الثانية عشرة: جدال	٣٧
اللقطة الثالثة عشرة: قفا	٤١
اللقطة الرابعة عشرة: وقت ثمين!!	٤٥
اللقطة الخامسة عشرة: نقل عِرْق	٤٩
اللقطة السادسة عشرة: بروجكتور	٥٣
اللقطة السابعة عشرة: تأثيث...	٥٥

اللقطة الثامنة عشرة: **لا شيء يستحق...** ٥٧

اللقطة التاسعة عشرة: **قصيدة...** ٦١

اللقطة العشرون: **انتحار** ٦٥

اللقطة الحادية والعشرون: **تشجيع!!...** ٧١

اللقطة الثانية والعشرون: **حلم** ٧٥

اللقطة الثالثة والعشرون: **ثلاث حواس... وعقل!!** ٧٧

اللقطة الرابعة والعشرون: **العجلة** ٨١

اللقطة الخامسة والعشرون: **المرحلة (-١)...** ٨٥

اللقطة السادسة والعشرون: **الفارس** ٨٩

اللقطة السابعة والعشرون: **الجبناء** ٩٣

اللقطة الثامنة والعشرون: **الإداري** ٩٥

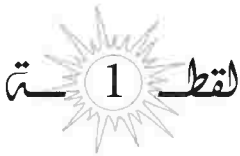

بكل هدوء

دخل الأول على الساحة مسرعاً الخطى... لاهثاً الأنفاس... على مجموعة من الأشخاص كانوا يتناقشون في قضية ما، وبدون تحية... وبلا «إحم ولا دستور»... دخل معهم في النقاش، وجادل دون حتى أن يدري حول ماذا يتناقشون، ولماذا هم جالسون، فأزبد وأرعد... "أنا الأفضل... أنا الأحسن... أنتم لا تفهمون شيئاً... أنتم أغبياء... فالقضية لا تُحل هكذا... بل تحل بهذه الطريقة..."، وقبل أن يكمل صراخه عليهم، قاموا إليه وطرحوه أرضاً، ورفعوه سماءً، ثم أخيراً... رموه خارجاً...

وفي أثناء ما كانوا يقومون بتلك العمليات مع هذا المزعج، دخل آخر بكل هدوء إلى الساحة، وأخذ منها مكاناً قصياً... وسحب كرسياً صغيراً، بالكاد كان يكفي لجسمه، وجلس دون أن ينبس ببنت شفة...

وما إن انتهوا من الأول المزعج، حتى التفتوا إلى الآخر الذي قال بهدوء: السلام عليكم...

ـ ردوا عليه بصوت واحد: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته...

ـ هل من الممكن أن أشترك معكم في الحوار...

وأذن بعضهم له إعجاباً بأسلوبه، أما بعضهم الآخر فأذن له مجاملة للفريق الأول...

وما إن انتهى من طرح فكرته، حتى أعجب به بعضٌ من الفريق الأول، وانضم بعضٌ من الفريق الآخر إلى الفريق الأول في إعجابهم به...

واستمر في مجادلتهم، والدخول في مناقشات معهم... طلع عليهم الصبح، وإذا به يُنتخب من قبلهم رئيساً للجلسة...

أما الأول... فلا زال يثير الغبار بخربشاته، ثم تحول الغبار إلى هواء... إلى أن انتهى إلى لا شيء!!!

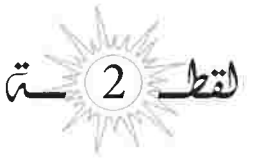

غرقى...

غرقت السفينة، ونجا أربعة فقط، قادتهم الأمواج إلى جزيرة نائية...

بعد ثلاثة أيام... لم ينتظر الأول معجزة إلهية، فالسماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، وبالتالي.... لاتمطر معجزات، فقام بصنع قارب صغير يستطيع من خلاله تحدي الأمواج بفكرة بسيطة أتته بعدما أجهد عقله في البحث عن حل، فأعجب الثاني الاقتراح، فبادر بمساعدته بصنع القارب، والثالث اكتفى بالصمت خائفاً من عواقب دخول هذا القارب بين الأمواج ثانية، ففضل الانتظار إلى أن تأتي طائرات الإنقاذ لانتشاله من هذه الجزيرة...

أما رابعهم الذي كان ككلب أهل الكهف، فقد سخر من هذا الطموح العالي، وذهب بعيداً عنهم؛ حتى لا تؤثر هذه «التخبطات» على تفكيره...

بعد يومين...

وصل الأول والثاني إلى الميناء، والذي كان لا يبعد عنهم كثيراً، وبعد يومين إضافيين وصلت طائرات الإنقاذ وانتشلت الثالث، وقبل أن يمر شهر تبنت إحدى الشركات العالمية فكرة الأول، وأصبح من العظماء، ولم ينس

رفيقه الثاني الذي ساعده، فأشركه معه وأصبح من الناجحين، والثالث أكمل حياته بشكل عادي كأي إنسان على هذه البسيطة...

انتشر الخبر في الصحف، وقرأه شخص كان جالساً في أحد المقاهي، ولم يزد عن أربع جمل تعليقاً على الحدث لصديقه الجالس بجانبه، قائلاً:

العظماء... يصنعون الفرص...

والناجحون... يستغلونها...

والعاديون يخشونها...

أما الفاشلون...

فيسخرون منها!!.

مرت الأيام... فدخل الأول التاريخ، والثاني عاش حياته ناجحاً، والثالث مرت أيامه كشروق الشمس وطلوع القمر... أما الرابع...

فلا زال البحث جارياً عنه!!!

تعرِّي

في مكان عام... وفي جو اعتيادي، وفي وقت كلٌ لاهٍ بما لديه من مشاغل، قام أحدهم فجأة وتعرّى من جميع هدومه، فصاحوا به جمعياً في صوت واحد... : «ماذا تفعل يا رجل؟!»... فقال بكل «ثقة»!!... «أنا أكشف واقعاً... لماذا نخفي عيوبنا؟... كلنا نملك ما أملك الآن.. لماذا لا نكشفه ونتناقش به جميعاً؟!»... أشاحوا بوجوههم عنه، غير مقتنعين بما يقول، ولكنه ولطبيعة بني آدم، وأن «كل ممنوع مرغوب»، وأن البشر تحب الحديث في الغرائب، فقد أصبح هذا الشخص حديث الناس في تلك المدة...

أحد المراهقين، أعجبته الفكرة... فكرة أن يكون حديث الناس، فقام وفي المكان نفسه بالتعرّي أيضاً...

ردة فعل قوية - ولكن ليست كقوة الأولى - نتجت من الناس، وحديث عنه ظهر من كلام الناس، فأصبح حديث الشارع ذلك اليوم...

مراهق آخر... أعجبته الفكرة وفعلها...

وشخص آخر... تملكت الفكرة سويداء قلبه، فجربها... وهكذا... إلى أن أصبح المكان كله يعج بأناس «تكشف واقعاً»، وأكثرهم سعادة كان أولهم

الذي علمهم السحر، لأنهم تعرّوا كما تعرّى، أما أكثرهم تعاسة... فكان شخص آخر لا يزال صابراً غير مقتنع بالفكرة، ولم يفعلها حتى الآن...

مرت الأيام والليالي، فأصبح الأخير... كلام الناس!!!

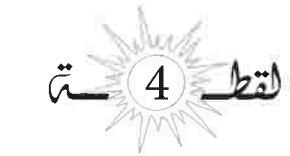

القصر

توقف أمام البوابة المبهرة لقصرٍ فاتن والشهير بكل شيء جميل فيه، أضواء... شهرة... متع من كل شكل ونوع... وقبل أن يدخل مدَّ له حارسٌ يقف على البوابة ورقة صغيرة بها مجموعة من الشروط للدخول في هذا القصر، ومن شدة روعة وجمال هذا القصر من الخارج، وقدرة الإغراءات بداخله على تكسير الصخر، وتجميد النار، وإشعال المياه، فقد وقّع على عجل دون أن يدري ماهي الشروط، وانطلق سريعاً داخل القصر...

انبهر كثيراً بموجوداته، واستمتع ملياً بإغراءاته، ولم يقلقه إلا وجود مخلوق ليس كباقي المخلوقات، سمع عنه كثيراً في هذا القصر بأنه يأخذ سكانه إلى بوابة في نهاية هذا القصر إلى حيث اللاعودة...

وعلى الرغم من أنه أمام هذه السعادة واللذة التي يحياها كان ينسى أو يتناسى هذه البوابة أحياناً أو الهاوية كما سمّاها بعضهم إلا أن قلقه لم يمنعه من التجرؤ ولو من باب الفضول لسؤال هذا المخلوق عن البوابة التي يخشاها جميع السكان، فأجابه المخلوق: وما علاقتك بها؟...

ـ أريد أن أطمئن... هل ستأخذني أنا أيضاً؟!...

ـ بالتأكيد... كل الموجودين في هذا القصر سيؤخذون إلى هذه البوابة... مهما طالت مدة بقائهم أو قصرت...

ـ وعلى أي أساس يتم الاختيار؟...

ـ لا يوجد أساس... فالاختيار عشوائي...

ـ أقصد مدة البقاء... أليست معياراً عندكم..

ـ لا... فهناك من بقي في هذا القصر ثمانين... وهناك من بقي سبعين... وهناك من لم يتجاوز العشرين... (وتابع قائلاً)...: باختصار، فإن مدة البقاء هنا ما بين السبعين والثمانين تزيد أو تنقص قليلاً أو كثيراً...

ـ وبعد ذلك؟!!...

ـ إلى تلك البوابة... (وأشار إليها بأطرافه)...

ـ (ثم سكت قليلاً يفكر بما قيل له، وبعد ذلك أتته فكرة رائعة، تريحه من هذا القلق النفسي، وسأله بابتسامة أدب): هل من الممكن أن أطلب منك طلباً ولن أنساه لك طوال عمري...

ـ إذا كنت أستطيع فسأفعل...

ـ فقط... قبل أن يأتي دوري بساعة قل لي؛ حتى أخرج من هذا المكان...

ـ (فابتسم ابتسامة رثاء): كان غيرك أشطر... صدقني لا أستطيع... فالأمر يأتي في لحظتها، ولا أملك إلا التنفيذ...

ـ ومتى سيأتي هذا الأمر عادة؟!...

فسكت المخلوق دون أن يتكلم بحرف واحد، ثم أدار إليه ظهره ومشى...

ووسط هذا الضجيج والصخب، نادى عليه الرجل قائلاً: يا سيد... متى سيأتي دوري؟!... (واستمر يناديه ودون أن يلتفت إليه المخلوق، وقبل أن يبتعد كثيراً أجابه قائلاً): ربما بعد سبعين... أو ثمانين... (ثم توقف، والتفت إليه بنظرات كأنها سهام من نار، وقال بهدوء): وربما الآن!!!...

فارتد الرجل خائفاً... وتراجع في رعب، وعينا ذاك المخلوق تتابعانه وكأنه أفعى تلتف حول فريستها... إلا أن الرجل ألقى بظهره للمخلوق راكضاً وسط هذا الإزعاج دون أن يلتفت إلى من جندل، ومن طرح إلى أن خرج من القصر، وإذا بالحارس يسأله: ماذا دهاك؟!...

- (والتفت إليه بغيظ): أنت لم تخبرني عن ذاك المخلوق وتلك البوابة...

- (فابتسم ابتسامة صفراء قائلاً): وهل تُصدِّقْ كل شيء تسمع عنه؟!... لو صدَّقنا كل شيء سمعناه لما استمتعنا بهذا القصر... ولبقينا كلنا خارجه... انس وادخل وأكمل ما بقي لك من متع...

- ربما أكذب ما أسمع... ولكن بالتأكيد لن أكذب ما أرى... (ثم هم بالابتعاد عن القصر قائلاً): إلى اللقاء...

- (فنهره الحارس): إلى أين يا عزيزي... (وأخرج له الورقة التي وقَّعَ عليها قائلاً): أنت وقّعتَ على كل شيء مكتوب في هذه الورقة... وليس من السهولة أن تنكث بوعودك... (ومَدَّ الرجل يده وأخذ الورقة، وإذا بها مجموعة من التنازلات لم ينتبه لها مع مجموعة من الشروط الجزائية في

حالة نكوثه عن العقد... وبكل هدوء... وبكل ثبات... قَطَّعَ الورقة قائلاً): اقض ما أنت قاض... لا حاجة لي بقصر زائل... لا طعم له، ولا لون، ولا رائحة.... (ورماها بوجهه قائلاً): دعه لك...

وذهب بعيداً عن القصر...

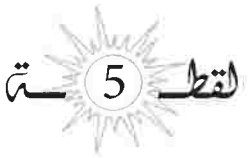

حوار

في أحد البرامج الحوارية، سأل المذيع ضيفه، قائلاً: ما رأيك في الأحداث التي تمر بها الأمة العربية حالياً؟...

- (قال مشبكاً بين أصابعه): بصراحة الأمة مطلوب منها أن تتحرك وتفعل شيئاً... فالوقت الذي تمر فيه الآن لم يمر على أحد سابقاً... ويجب أن يكون هناك التفاف قوي من قبل الشعوب والزعماء لإيجاد حل ناجع لقضايا الأمه...

وبعد أن انتقل الحوار بينهما إلى سؤال عن «التعايش مع الآخر»، أجاب قائلاً، وهو يحرك يديه ذات اليمين وذات الشمال: لا يوجد فرق بيننا وبين الآخر... يجب أن يكون هناك تعايش... فمثلاً... ماالذي يمنع أن نستفيد منهم في كل شيء؟!... لماذا لا نسمح بما هو موجود عندهم؟!... كفانا تخلفاً... كل شيء ممنوع... كل شيء خطأ... إلى متى، ونحن نعيش هذا التخلف؟!...

وبعد حوار طويل استمر لثلاث ساعات مع هذا «العملاق»!!... تنقلوا فيه في شتى الموضوعات السياسية، والاجتماعية، والفكرية، حتى الدينية

لم يخل الأمر من فتاوى أطلقها هذا «المتفرد»!! بعقله في شتى الأمور، أنهى المذيع البرنامج، قائلاً: وفي ختام حلقتنا الليلة نوجه الشكر لفنان الشعب الأستاذ راشد عبدالله علامة على إتاحة هذه الفرصة لنا للالتقاء به والاستفادة من آرائه المهمة في كافة مجالات الحياة... وأخيراً هذا محمد ناصر يحييكم على أمل اللقاء بكم في حلقة الأسبوع المقبل من برنامجكم الحواري المنوع.... «سلاما»!!!!

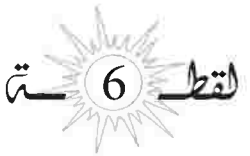

اسمها

بعد الملكة...

أخذ رقم هاتفها وسجله باسم.... «الحب كله»...

اتفق معها على عدم الإنجاب، فمرت سنة كالحلم كأحلى عشيقين في الدنيا...

بعد سنتين...

أنجبا طفلهما الأول، والذي كان أهم رابط مع المحبة يربط بينهما...

بعد ثلاث سنوات...

كَبُرَ الطفل، و«أشياء أخرى» كَبُرتْ أيضاً!!، فأصبحت بجواله... «المدام»!!...

كَثُرَ الأبناء والبنات، ومعها أمور أخرى كطبيعة الأشياء التي تكبر مع مرور الزمن...

فتحول الاسم إلى... «أم العيال»...

بعد عقد ونيف...

دقت «الحب كله»... أو «المدام»... أو «أم العيال»، سموها ما شئتم على هاتفه الذي كان بجانبه، لترى اسمها على الجوال، من باب الفضول، ومعرفة مقدارها عنده...

وإذا به تحول إلى... «جعلها حقي من الدنيا»!!!

البعبع

دخل عليهم رجل مفتول العضلات، طويل القامة، مهيب الوجه، قوي البنية، محذراً بإخلاص: انتبهوا أيها الأصدقاء... فإن هناك رجلاً في القرية البعيدة مفتول العضلات ويملك من العدة والعتاد ما لا تملكون، ويطمع في مكانكم...

فاستغرب الجمع من هذا الزائر الغريب، ومن طريقته في النصح، قائلين: ومن أنت؟!...

ـ أنا صديق... ولست لكم إلا ناصحاً أمينا...

ـ ولماذا أتيت من مكانك البعيد لتحذرنا من رجل آخر في مكانٍ بعيدٍ أيضاً...

فاستنكر ردهم، ولم يشأ أن يحاورهم كثيراً، خاصة وأن هؤلاء القوم بعيدون كل البعد عنه، سواء في المكان، أو في الخلفية الثقافية، أو الاجتماعية، ومن الصعوبة أن يصدقوه، ومن الصعوبة أكثر أن يقتنعوا أنه ناصح، هكذا لوجه الله... فأخذ أحدهم على الطرف وهمس فيه،

قائلاً: أقنعهم... بأن ذاك البعبع طامعٌ في مكانكم... (وتابع مبتسماً)... وتذكر... أنه لا يُخدم بخيل!!...

ففهم الرجل مغزى الزائر، فقام خاطباً في قومه عن خطر ذاك البعبع، وعن قربه من قريتهم، حتى وإن كان بعيداً، فما يمتلكه من قوة وعدة وعتاد، تقرِّب الزمن، وتقصِّر المسافات، وهي كفيلة بأن يستطيع أخذ مكانهم عنوة إن لم يأخذه برضاهم...

واقتنع أهل مكانه، وهبّوا هبّة رجل واحد، وانطلقوا ناحية ذاك البعبع لمهاجمته على طريقة «نتغدى به قبل أن يتعشى بنا»، ولم يألُ الزائر عن دعمهم ماليا وإمكانياتٍ بكافة أنواعها، وفي الوقت نفسه لم ينس ذاك الرجل الذي تكفل بإقناعهم...

وانتهى ذاك البعبع الذي كان يشكل خطراً على الزائر، أكثر من خطره على أهل المكان عن طريق أهل ذاك المكان...

رجل آخر في قرية أخرى كان يشكل خطراً على الزائر... فأعاد الموال نفسه عن طريق الرجل نفسه الذي خطب فيهم بالكلام نفسه...: «انتبهوا من ذاك البعبع»!!... واستخف قومه وعادوا إلى التصرف نفسه مقتنعين أن كل من حولهم «بعابع»!! تطمع فيهم إلا ذاك الزائر وصديقه القابع في جزء قصي من ذاك المكان...

وبعد أن انتهوا من «البعبع» الثاني، سأل أحد أهل القرية الزائر، قائلاً: حسناً يا صديقي... ماذا عنك... ألم تنته مهمتك؟!

فاكتفى بأن ابتسم إليه بأدب، واتجه إلى من خدمه في بدايات مهمته قائلاً: يبدوا أن هذا سيسبب لي إزعاجاً...

- (فابتسم قائلاً): ولكن هذه المرة صعبة... فكيف تريد مني أن أقنعهم، وهو من أهل المكان؟!...

- (فهمس فيه قائلا): هذه مهمتك... (ثم غمز له بعينه وتابع)...: ولا تنس... لا يخدم بخيل...

وأومأ الرجل برأسه بعد أن فهم المغزى، وقام خاطباً في أهل مكانه، محذراً لهم من هذا «البعبع» الجديد!!!....

اجتماع

التف الموظفون ومساعدو المدير حول طاولة الاجتماعات في المكان والزمان المحدد...

استوى المدير على كرسيه، وخلع نظارته من عينيه، ونظفها بقطعة منديل أخذها من علبة المناديل المرتكزة على جانبه الأيمن، ثم عاد ولبسها... وبعد أن حياهم بالتحايا المعهودة، مبيناً أهمية هذا الاجتماع لتطور الإدارة، والأثر العائد عليهم من حضوره، وإبداء آرائهم مهما كانت بسيطة... «فهي قد تكون مهمة بالنسبة لي... وقد تفتح نقاطاً كانت غائبة عني»... حسب تعبيره لهم، بادرهم بالسؤال، قائلاً: هل تؤيدون فكرة انتقال المكاتب من هذه الإدارة إلى إدارة أخرى؟!...

فأجابه أحدهم...: «يا طويل العمر... صعوبة هذه الفكرة تكمن في التكلفة المالية العالية نتيجة النقل»...

وبسرعة تدخل آخر مؤيداً هذه الفكرة وأضاف...: «ولا تنس يا طويل العمر، أننا تعودنا على هذه الإدارة... ومن الصعوبة التأقلم في إدارة جديدة»...

وانطلق ثالث مؤكداً كلام زميليه، مضيفاً...: «أيضاً نظرة الناس إلينا... قد تفتح هذه الفكرة القيل والقال علينا... ونحن لسنا بحاجة لكلام يشتت مهماتنا»!!...

واستمر الجدل بينهم في الصعوبات التي ستنتج من الانتقال من هذه الإدارة، فمن قائل: «التغيير لن يجلب نتيجة»... وآخر...: «لسنا ضد التغيير، ولكننا ضد الصعوبات التي ستنتج من هذا التغيير»... إلخ...

أما المدير... فبعد أن انتهى من سماعهم... لملم أوراقه يائساً، وقال: عندما تفهمون سؤالي جيداً... قولوا لي حتى نجتمع ثانية... فأنا سألتكم تحديداً هل تؤيدون؟!... ولم أقل ماهي الصعوبات؟!... وهناك فرق...

ثم تركهم... ولم يعلم ما إذا فهموا قصده أم لا!!

توقيت

في أحد ممرات الشركة التي يعمل بها، التفت إلى صديقه مشيراً إلى أحد زملائهما الموظفين الذي مر دون أن ينتبه إليهما، وقال هامساً: عجيبٌ أمر هذا الرجل!!...

- لماذا؟!...

- طلبت منه شيئاً هذا اليوم، فاستشاط غضباً في وجهي، دون أي سبب مقنع...

- وماذا طلبت منه؟!...

- أن أوصله بسيارته إلى منزله وأستعيرها منه؛ حتى أذهب وآتي بأم العيال من عملها...

- وأين سيارتك؟!...

- في الورشة...

وبعد أن دلفا إلى إدارتهما، قال الثاني محاولاً إيجاد مبررات لصاحبهما: ربما كان لديه أسباب... على أي حال التمس العذر لأخيك المؤمن...

ـ مهما حصل... كان من المفترض أن يكون أكثر أدباً... (ثم تابع قائلاً)...: صحيح أنه اختلف مع المدير هذا الصباح وبالتالي خُصِمَ من راتبه خمسة أيام، ولكن هذا ليس مبرراً لأن يثور في وجهي.

ـ (والتفت الثاني إلى الأول مندهشاً): ماذا؟!... خُصِمَ من راتبه؟!...

ـ (ودون أن يرد على تساؤلات صاحبه أكمل الأول نقاشه من طرف واحد): ويبدو أن زملائي صادقين حين حذروني منه، ومن عصبيته المعتادة...

ـ (ثم توقف الثاني مستغرباً، خاصة أنه لم يكمل أسبوعاً منذ تعيينه في الشركة): عصبيته؟!!... وهل هو عصبي؟!...

ـ أووووه... جداً

ـ (ثم قال، وهو يحك رأسه متعجباً): كل هذا.. ولا زلت مستغرباً لماذا استشاط فيك غضباً!!

ـ لا... لا يوجد سبب مقنع...

فما كان من الثاني إلا أن ترك الأول، قائلاً: عن إذنك عندي شغل....

وفي أثناء طريقه إلى مكتبه، مر به طيف حادثة مشابهة حدثت له في ماضي الأيام، رواها لوالده الذي استنكر ما قام به ابنه، قائلاً له: يا ولدي... عندما تطلب الحاجة الخطأ... في التوقيت الخطأ... من الإنسان الخطأ... فتوقع ردة الفعل الخطأ.

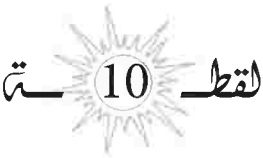

نصيحة

التقيته في مكان عام، ربما كان مقهى من أحد مقاهي المدينة، على طاولة مستديرة، بعد زمن ليس بالقريب من آخر لقاء لي به إبان ماكان يدرسني في المرحلة الثانوية.

سألته عن أحواله، فأجابني بأنها «على خير ما يرام»، قالها من باب العادة لا أكثر... فحالته المعنوية، وملابسه العادية، ونظراته التائهة، لا تدل على أني أجلس مع شخص وضعه... «على ما يرام».

تجاذبنا أطراف الحديث في أمور شتى، تخللها نصائح كثيرة منه في كيفية شق طريقي، وتكوين مستقبلي، وذلك من باب أن «أكبر منك بيوم... أعرف منك بسنة»، وكيف وهو قد تجاوزني عمراً بحوالي عشرين سنة، وإذا ضربنا أيام عمره التي يكبرني بها، بالسنين التي بلغها فوق مني، لوجدنا أني وبكل بساطة... أجلس مع «نبوخذ نصّر»!!...

كان وهو يتحدث، يحرك يديه بما يدل على الفهم، وناظريه بما يعني أنه خبير، وقلقه البادي على وجهه يعطي إحساساً بأنك تكلم إنساناً عركته

السنون، وطوحت به الأيام بما يوحي أنك أمام شخص بلغ السبعين، علماً بأنه لم يتجاوز الخمسين سنة.

كنت وهو ينصحني، أتأمل في حاله، مستغرباً من وضعه، وقد أتاني طيف أسئلة حرت في إجابتها...: «لماذا لم يطبق هذه النصائح على نفسه؟!... وكيف يمكن أن أصدق إنساناً بهذه الحال التعيسة!!... وهذا الحاضر المؤلم والمستقبل المظلم... بل كيف به يأتي بهذا الكلام المنمق من أوله إلى آخره... بمقدمة... ومضمون ونهاية»، حتى أني تعجبت أكثر من هذه الطريقة التي يفلسف بها الأمور، ولم يأت في بالي لحظتها إلا تلك الآية القرآنية... ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ (البقرة:٤٤).

وفي خضم حديثه ونصائحه، انتابني شعورٌ متناقض، ما بين الإعجاب بمنطقه، والملل من نصائحة التي لم يطبقها على نفسه، ولم أُنهِ الحوار الذي كان غالباً من طرف واحد!!، إلا بسؤال طرحته عليه: كلامك جميل... وأسلوبك مرتب... ولكن... ألا ترى معي أن «باب النجار مخلوع؟!»...

وقبل أن يجيب أحسست بندم، ذلك لأن السؤال قد وقع عليه وقع الصاعقة، فألجم لسانه عن الحديث مدة ولمت نفسي حينها على تسرعي، وليتني تركته يكمل، وآخذ منه ما ينفعني، وأترك ما لا ينفعني، خاصة وأنه اتضح لي نيته السليمة، حتى ولو لم ينجح... فلربما نجحت أنا...

ولم أكمل تسلسل أفكاري، حتى أجابني مزيناً شفتيه بابتسامة انكسار: عزيزي... ربما تستغرب كلامي... ولا ألومك... فكان من الأولى أن أطبق هذه النصائح على نفسي... ولكن ما العمل وأنا لم أجد من ينصحني عندما كنت في مثل سنك؟... (ثم تنهد قائلاً)...: عموماً... حتى ولو

رأيت أن تجربتي فاشلة... وهذا من حقك... فهذا لا يمنع أن تستفيد من أخطائي... (ثم تابع).....: باختصار... فإن تتعلم من أخطاء تجربة فاشلة... خير من أن تمشي خلف تجربة ناجحة قد تكون خدمتها الظروف، والتي ربما لا تخدمك...

ثم قام، وكأن هموم الدنيا على أكتافه، بل وكأنه يقول...: «الخطأ خطئي أني أردت تنويرك... ولكن مثلك لا يستحق التنوير...

وكانت هذه تجربة فاشلة... تعلمت منها...حسن الاستماع...

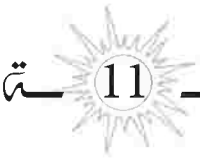

مياه راكدة

جلس الشيخ تحت شجرة، مستظلاً بظلالها الوارفة، ملقياً بظهره إليها، واضعاً يديه خلف رأسه، ماداً قدميه أمام نبع ماء في صحراء قاحلة، يتأمل فيما حوله بعينين تجولان في الفراغ، على غير نية أو اتجاه معين؛ وإذا بشاب يدخل عالمه فجاة، يقف أمام نبع الماء، ويلتقط حجراً من الأرض، ليرميه مسافة وسط النبع... تحركت المياه قليلاً وشكلت حلقات دائرية متتالية، ثم اختفت...

لم يتغير شيء في نظراته، تمتم بكلمات بينه وبين نفسه دون أن يغير من جلسته.

وبعد دقائق... يعود الشاب بعد أن «ركدت» المياه، ويلتقط حجراً آخر، ثم رماه في النبع كما فعل في الأولى، وشكلت المياه حلقات دائرية لا تختلف عن سابقتها، نظر الرجل شزراً دون أن ينبس ببنت شفة، فقد أزعجه هذا الشاب في لحظة تأملاته، برميه الحجارة، و«تحريك المياه الراكدة» دون أي نتيجة تذكر!...

اضطجع الشيخ على جنبه الأيمن غير مبالٍ بما فعله، قائلاً في نفسه...: «شباب»!!...

وبعد لحظات، وقبل أن تغمض عينا الشيخ، لأخذ قيلولته التي طال انتظاره لها هذا اليوم، فإذا بالشاب نفسه يعود مرة أخرى وبعد أن هدأت المياه، قام بتحريكها، كما فعل في المرتين الأوليين...

وهنا لم يطق الشيخ صبراً فصرخ، قائلا: هيه... ماذا تفعل؟!...

فالتفت الشاب متفاجئاً من وجود هذا الشيخ، فبدا معتذراً، حين قال: آسف... لكني فقط أحاول تحريك المياه الراكدة...

وهنا أحس الشيخ أنه استعجل بصراخه على الشاب، خاصة وقد أُعجِبَ بأدبه وطريقة اعتذاره، فأشار إليه بيده أن يقترب، فا قترب الشاب بكل هدوء وأدب، وبعد أن كرر اعتذاره، سأله الشيخ: لماذا فعلت ما فعلت؟!...

ـ أحاول تحريك المياه الراكدة...

ـ لماذا؟!...

ـ لأنها راكدة...

ـ فقط!!... وهل هذا سبب كافٍ حتى تأتي من بيتك... «وتضرب مشواراً»... وفي هذا المكان البعيد تزعجني أنا الشيخ الذي أترقب هذه الساعة؛ لأرتاح فيها... فترمي حجراً وتحرك المياه الراكدة؟!!... حسناً... (وأشار إلى النبع قائلاً)...: هذه المياه الراكدة تحركت... ماذا استفدت؟!

وهنا توقف الشاب حائراً بماذا يرد، وكيف يجيب على هذا السؤال، ولكن بديهته التي لا تخلو من سرعة أنقذته بأن قال: حَرّكْتُكَ معي... لأتناقش معك، وأستفيد من خبرتك...

ـ (فتنهد الشيخ): أنت لم تُحركني... أنت أزعجتني... أنت كمن نشر التلوث دون أن يعلم...

ـ تلوث؟!!... (قالها الشاب مستغرباً)...

ـ نعم... التلوث... هذه المياه الراكدة القذرة قد تجمعت فيها الجراثيم... وأنت بإلقائك الحجر وسطها لم تحرك المياه الراكدة... بل حركت الجراثيم الموجودة فيها... وهذه الجراثيم تتحرك ناحية اليابسة بفعل دفع حركة المياه الراكدة لها... وهذا ما يؤدي إلى أني لا أستطيع أن أتنفس هواء نظيفاً بسبب الجراثيم التي تحركت بفعل المياه الراكدة التي حركتها... وأيضاً...

ـ (وهنا هز الشاب يديه محاولاً إيقاف الشيخ عن الكلام، وقال باندهاش): يكفي... يكفي... كل هذا لأني حركت المياه الراكدة؟!!... مع أن ما أسمعه عن تحريك المياه الراكدة شيء يختلف تماماً...

ـ (وهنا خفف الشيخ من حدة كلامه، بعدما لمح ذهول الشاب، وأنه لم يفعل ما فعل إلا عن حسن نية، فقال له ـ أي الشيخ ـ): يا ولدي،...بحكم خبرتي في هذه الحياة... وسكني في الصحراء... أقول لك: إن تحريك المياه الراكدة كمن يلعب بالنار... فأنت عندما تكون أمام جمر مشتعل، وتقوم بـ «تحريك» هذا الجمر الـ «راكد» فأنت دون أن تعلم تزيد الاحتكاك بين الجمر مما يؤدي إلى اشتعاله فجأة... فالجمر إما أن تطفئه بالماء... أو لا تلعب به...

ـ (وهنا سأل الشاب): إذن... كيف نتخلص من هذه الجراثيم إذا لم نحرك المياه الراكدة...

ـ بأن تنظف المياه من الجراثيم... لا أن تحركها بلا هدف...

ـ ولكن هذا يحتاج تكلفة عالية ومجهوداً كبيراً...

ـ (وهنا ربت الشيخ على كتف الشاب، وقال بهدوء مزيناً شفتيه بابتسامة تكاد تنير درب هذا الشاب من نورها): إذن... دعها لمن يملك التكلفة... والجهد... فإذا كنت لا تستطيع تنظيف المياه الراكدة من الجراثيم... فلا تحرك المياه الراكدة... فتظهر الجراثيم...

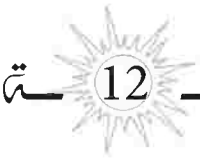

جدال

كانت جالسة في صالة المنزل حين دخل عليها شقيقها الأكبر العائد للتو من الدراسة في الولايات المتحدة الأمريكية، والذي بادرها قائلاً: إلى متى وأنتِ على هذه الحال؟!...

ـ (فالتفتت مستغربة): أي حال؟!...

ـ هذه الجلسة... وهذه الاتكالية... ذهبت إلى أمريكا ومكثت فيها مدة من الزمن للدراسة، وأنتِ لم يتغير حالك!...

فنظرت إلى نفسها باستغراب؛ لترى ما الذي أزعج أخاها فيها، والذي تَبرَّمَ قائلاً: ليس عن الشكل أتحدث... ولكن عن الحال التي أنتِ فيها... عن المضمون... ألا تشاهدين العالم من حولك كيف يتطور؟!... ألا ترين الناس كيف يتقدمون!... ألم تحسي بتخلفك، مقارنة بغيرك من النساء؟!

وفي هذه الأثناء، دخل شقيق لها آخر، بعد أن سمع شيئاً من حديثه في أثناء طريقه إليهما، فصرخ فيه غاضباً: وهل اشتكت لك، حتى تُدخِل فيها هذه الأفكار الغريبة؟!...

ـ (فأجاب مستغرباً): عندما أنصحها وأنورها أكون أدخلت فيها أفكاراً غريبة؟!...

ـ وهل باعتقادك أنك تنورها؟!!... أنت تحرقها!!...

ـ (فابتسم ساخراً): أحرقها؟!... أعوذ بالله... هكذا أنت لم تتغير... منذ أن تركتك، وأنت كما أنت ترفض التغيير...

ـ (فبادره شقيقه مقطب الحاجبين): وأنت كما أنت... شيطان من صغرك... تحب أن تنشر الفاحشة في الذين آمنوا...

ـ (والتفت إلى أخته، قائلاً): والله لن يضيعك إلا هذا المتخلف بفكره الظلامي...

ـ (والتفت الآخر إلى أخته، قائلا): بل والله لن يضيعك إلا هذا الشيطان بفكره الببغائي...

ـ ببغائي؟!... ماذا تقصد؟!...

ـ أقصد أنك تقلد أعمامك الغرب ليس إلا...

ـ أما أنت، فظلامي تستنسخ أفكاراً قديمة لا تلائم العصر الحديث...

أما هي... فالتفتت إلى أخيها الأول الذي قال لها: تكلمي... وقولي له: إنك مللتِ من هذه الأفكار المستنسخة التي يرددها هو وأمثاله منذ ١٤٠٠ سنة...

ثم التفتت إلى أخيها الثاني الذي قال لها: بل ردي عليه، وقولي: إنك لا تحتاجين هذه الأفكار الفاحشة والماجنة...

ـ (فالتف أخوها الأول حول الكرسي التي تجلس عليه، وعند أذنها اليمنى همس فيها): صدقيني... إن استمررتِ في خضوعك له ولم تفكي الأغلال التي كبلك بها، فإنه سيقودك إلى التخلف والانغلاق..

ـ (والتف أخوها الثاني حول الكرسي التي تجلس عليه، وعند أذنها اليسرى همس فيها): صدقيني... لو استمعتِ لكلامه المعسول المتحرر، فإنه سيقودك إلى جهنم وبئس المصير...

ـ (فعاد أخوها الأول، والتف إليها وجهاً لوجه، وركز عينيه في عينيها كالصقر، وقال بإصرار من يأمر وليس من يطلب): تحرري منه...

ـ (فدفعه الثاني، وركز عينيه في عينيها كالنمر، وقال بقوة من لا يعرف الهزيمة): لا تنسي... هذه وصايا أبي...

ـ (فصرخ الأول بحنق): يووووه... أبي مات... وهل نستمر على أفكار إنسان مات من عشر سنوات؟!...

ـ (وعاد الثاني وركز عينيه في عيني شقيقه): نعم... مات منذ عشر سنوات... ولكن أفكاره باقية إلى يوم الدين...

ـ (فابتسم الأخ الأول، وربت على كتف أخيه، قائلاً كمن يحس باقتراب النصر): حسناً... ولنسألها... اتفقنا؟!...

ـ (فهز الثاني رأسه وقال كمن يظن بدنو الغَلَبة): اتفقنا...

ـ بشرط... أن رأيها هو الذي يمشي... (وأشار إلى نفسه بإبهامه الأيسر)... معي... (ثم عاد بسبابته اليسرى، مشيراً بها إلى شقيقه)... أم معك....

ـ (فابتسم الثاني، وكأنه واثق من نهاية شقيقه هذه المرة): اتفقنا...

والتفت كلاهما وقالا بصوت واحد: هاه... ما رأيك يا أختنا العزيزة... أنا أم هو؟!...

إلا أنهما لم يسمعا إلا صدى صوتيهما، فقد تركت المكان لهما إلا من ورقة وضعتها على الطاولة مكتوب عليها... «كلاكما أخواي... وكما أحبكما... متأكدة أنكما تريدان الخير لي... ولكن ما العمل وقد بلاني الله باثنين ومع احترامي لكما... كلاكما أغبى من الآخر... فبدلاً من أن تفكرا بماذا أريد... فأنتما تفكران بماذا تريدان... أحدكما يريد أن يقذف بي وسط الأمواج دون أن يعلمني السباحة، ليباهي زملاءه بأنه متطور... والآخر يريد أن يسجنني دون فتحة أتنفس منها؛ ليباهي زملاءه أنه متأصل... وبين زملائكما ورضاهم عنكما... ضعت بينكما... باختصار... عندما أكون أنا همكما الأول... تعالا وناقشاني...

أختكما...

لن أقول المظلومة...

فمن روحه مع الله... لا يحس بالظلم أبداً...

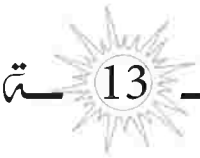

قفا

في أثناء ما كانوا يتناقشون في قضية ما، وهم على أحد مقاهي الحارة، مر من بينهم سامر بمشيته المعتادة، واضعاً يديه في جيبيه، مطرقاً برأسه، نظراته لا تتجاوز خطواته، اهتماماته لا تكاد تتخطى أرنبة أنفه، وإذا بأحد الجالسين يناديه بأعلى صوته، بأن يقترب...

فاقترب سامر، إلى المكان الذي أشير له إليه، فقال الذي ناداه: أطرق قليلاً..

فاقترب سامر منه، وأطرق برأسه حتى وصل إلى المستوى الذي يريده ذاك الجالس، فضربه على قفاه!!، وكذلك فعل الثاني، والثالث، إلى أن انتهى آخرهم، وبعد ذلك... أشاروا عليه بأن يذهب.

وعاد سامر، ومشى مشيته السابقة، واضعاً يديه في جيبيه، مطرقاً برأسه، نظراته لا تتجاوز خطواته، اهتماماته لا تكاد تتخطى أرنبة أنفه، وإذا بثلة أخرى تناديه... وفعلوا به مثلما فعل به السابقون، ثم أكمل طريقه بمشيته المعتادة، واضعاً يديه في جيبيه، مطرقاً برأسه، نظراته لا تتجاوز

خطواته، اهتماماته لا تكاد تتخطى أرنبة أنفه، فنادته ثلة ثالثة، وأكملوا معه ما يلزم!!...

وهكذا... يومه أنهاه كما بدأه، وهو الذي قد بدأه كما أنهاه بالأمس...

مدة طويلة من الزمن عاشها سامر بهذا الوضع، وهو إن بدا لأهل الحارة أنه عديم الإحساس، إلا أنه عكس ذلك تماماً، فقد كان يرجع دائماً إلى بيته يشتكي نفسه من نفسه، ويكلم نفسه عن نفسه، مالاً من خضوعها... مستغرباً في ذات الوقت، لماذا يعامله أهل الحارة بهذا الشكل؟!... فقد كان في أغلب الأحيان، يتأمل وجهه في المرأة... «ما الذي يختلف فيّ عن الناس؟!... ما الذي يشجعهم علي معاملتي بهذه الطريقة؟!... هل أنا مهزوز إلى هذا الحد الذي يضربني فيه كل سكان الحارة على قفاي؟!... لدرجة يخيّل لي أن كل من حس بمشكلة ما، سواء في عمله أو بيته أتى ليفرغ شحنات غضبه على قفاي؟!»... فتنهد بينه وبين نفسه...: «إلى متى سيدوم هذا الحال؟!»...

ـ إلى أن تعز نفسك.. وتعدل مشيتك.. (قالها شيخ من شيوخ الحارة، المشهور بحكمته، بعد أن أفضى إليه سامر بما في نفسه في يوم من الأيام)...

ـ (فسأله سامر مستغرباً): أعز نفسي؟!... وهل قيل لك: إني أحقر نفسي؟!...

ـ لم يقل لي أحد ذلك... ولكن هذا ما أحسه من خلال برنامجك اليومي.. وما أراه من خلال هيئتك...

ـ هيئتي؟!.. وما بها هيئتي؟!..

ـ ألم تتأمل نفسك في المرآة؟!..

ـ دائماً ما أفعلها!!...

ـ وماذا لاحظت؟!..

ـ لم ألاحظ شيئاً.. فوجهي إن لم يكن جميلاً، فهو ليس قبيحاً..

ـ وماذا أيضاً؟...

ـ أنفي جميل.. وشعري ناعم.. وجسمي نحيل.. ولم أعرف حتى الآن أين المشكلة؟!..

ـ (فابتسم الشيخ): يبدو أنك تتأمل نفسك من الأمام دائماً... (ثم أكمل قائلاً)...: انظر إلى عنقك يا سامر... فالمساحة البيضاء الناصعة من جراء إطراقك برأسك تغري تماماً لضرب قفاك.. بل لا تغضب مني إذا قلت لك..: إنه من الخطأ على الإنسان أن يرى مثل هذا القفا دون أن... (وأشار بيده، وكأنه يريد أن يضرب قفا) يجرب حظه ويضرب هذا القفا...

فتحسس سامر قفاه، ووجد فيه مساحة تغري بمداعبته حتى لنفسه، فأخذ يطرق قفاه بكف يده اليسرى طرقاتٍ خفيفة، فقال له الشيخ: أرأيت... حتى أنت عندما تحسست قفاك لم تقاوم الإغراء.. فطرقت عليه، ولو كنت وحدك، فلربما أعطيت نفسك «واحدة يحبها قلبك»!!...

ـ والحل؟!...

ـ ارفع رأسك يا سامر، وعز نفسك...

ـ وهل إذا رفعت رأسي انتهت المشكلة؟!...

ـ هي خمسون بالمائة من الحل..

ـ كيف؟!...

ـ إذا أنزلت رأسك... فسيصلون إلى قفاك... وإذا رفعت رأسك.. فلن يلمسوا حتى خديك... (ثم تابع بخشوع)...: الصورة تؤثر يا سامر... من يهن يسهل الهوان عليه...

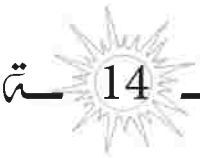

وقت ثمين!!

كان على مكتبه يراجع بعض المعاملات، ويقارن ما فيها مع ماهو موجود في جهاز الحاسب الآلي خاصته، حين اتصل عليه أحد أصدقائه، مبلغاً إياه بأمر ما، فرد مذهولاً: بالله؟!!...

وأقفل هاتفه النقال سريعاً ووضعه في جيبه، وبحركة سريعة قام من مكتبه، فارتطمت يده بكوب الشاي المرتكز على الطاولة، فانسكب على أوراقه التي كان يراجعها، ثم عاد سريعاً إليها محاولاً تنشيفها، وتنظيف ما يمكن تنظيفه، إلا أنه ملّ سريعاً وتمتم متبرماً: يووه... بكيفها!!...

ثم انطلق سريعاً إلى خارج مكتبه، وقبل أن يخرج، تذكر أنه لم يغلق جهاز الحاسب الآلي، فتوقف عند الباب متسمرًا يتأمل في جهازه المفتوح، ثم غيّر رأيه سريعاً وتمتم قائلاً: أيضاً... بكيفه!!

وخرج يسابق خطاه إلى موقف سيارته، ومن شدة عجلته، وفي أحد الممرات اصطدم بعامل كان يحمل بين يديه صينية مليئة بأكواب الشاي والقهوة؛ ليوزعها على الموظفين، فسقطت الصينية وما حملت على الأرض، فانسابت أقداح الشاي والقهوه على الفرشة المهترئة، وكأنها دماء غزلان

سالت من قمة جبل، واختطلت بسائل نفطي أسود كسواد الليل، منفجر من قاع الأرض، فزادت تلك الفرشة سوءاً على سوء، فالتفت إليه، وهم بالاعتذار له ومساعدته، لكنه تراجع قائلاً، وهو يهز يده اليسرى بعلامة اللامبالاة: بكيفه!!...

ووصل إلى المصعد، وضغط على زر مناداته، ورأى لوحة الأرقام في الأعلى، وإذا بالمصعد لا يزال في الدور الأرضي، ففكر بينه وبين نفسه... «وأنا الآن في الدور السابع!!»، واتخذ قراراً في حياته لم يتخذ قراراً في سرعته، بل يحسده كثيرٌ من المسؤولين على قدرته في اتخاذ قرار بهذه السرعة.

فانطلق سريعاً تجاه السلم، وبأسرع من الضوء بدأ يقفز الدرجات قفزاً، بطريقة لو رآه فيها الكنغر لاحتار في كيفية قفزات هذا الرجل، ولغار منه في سرعته وقفزاته، ولو شاهده «كارل لويس» لتوارى بتاريخه الرياضي في الوثب الطويل، خجلاً لطول قفزات هذا الرجل العَجِلة.

ووصل إلى دور مواقف السيارات، ودون حتى أن يلهث، أو يتنفس، أكمل طريقه متخطياً الريح سرعة، مطلقاً بنظراته إلى الأمام، ويده اليمنى على رأسه ماسكاً بها عقاله حتى لا يسقط، وواضعاً يده اليسرى على جيبه الأيسر، حامياً بها جواله ومحفظته ومفاتيحه عن القفز، أما طرف شماغه الأيمن، فقد كان وبلا حولٍ ولا قوة مكبلاً بين أسنانه حتى لا يتحرك لا يميناً ولا شمالاً، وبمجرد أن دخل السيارة شغلها، وحتى دون أن يُسخِّنها تحرك سريعاً، قاطعاً الإشارة الأولى دون أن يدري ما إذا كانت حمراء أو صفراء أو حتى... «زرقاء»!!، زحمة المرور لم تعقه عن الانسياب بين السيارات كأفعى في صحراء الربع الخالي، بل إن الأفعى مهما بلغت

من سرعة ومرونة، فهي لا تستطيع أن تصل إلى نصف ما بلغ من اندفاع وإنسيابية، فهي لا تقدر على فعل ذلك إلا في «الربع الخالي»!!، ولكن هو... يستطيع فعل أكثر من ذلك، حتى ولو كان في... «الخمس الممتلئ»!!!...

وفي أثناء حركته السريعة، ومروره المتهور بين السيارات، احتكت سيارته من مقدمتها بالإضاءة الخلفية لسيارة أخرى، فرمقه صاحب السيارة الأخرى من خلال المرآة الداخلية لسيارته، بنظرة مصاحبة لإشارة يده، وكأنه يريد أن يقول:... «خير»!!...

فأشار إليه بيده اليمنى بإشارة الاعتذار، دون أن ينبس ببنت شفة، فنزل صاحب السيارة المصدومة؛ ليرى ما إذا حصلت أضرار لسيارته أم لا...

أما صاحبنا، فقد هَمَّ بالنزول، إلا أن عينيه التقت بساعة السيارة الداخلية، فتذكر ألا وقت لديه لمثل هذه الأمور، وبحركة سريعة وضع ناقل الحركة على حرف «R»، ثم التف يساراً، ومع أول فرجة صغيرة، غيَّر ناقل الحركة إلى حرف «D»، وانطلق سريعاً قائلاً بينه وبين نفسه:... «بكيفه»!!...

تاركاً صاحب السيارة المصدومة مذهولاً في مكانه، ليس له إلا أن يندب حظه العاثر الذي جعله يقف أمام هذا «الأبله»، فحاول اللحاق به، ولكن زحمة السيارات أعاقت حركته...

ووصل إلى البيت، وبعد أن أوقف السيارة، فتح الباب سريعاً، وانطلق دون أن يغير من حركاته السابقة شيئاً، فهجمت ركبته اليمنى دون شعور بوجه ابنه الأصغر، الذي سقط أرضاً، وبدا أثر الدم ينزف من أنفه، فعاد إليه سريعاً، ورفعه من الأرض، وإذا به يبكي بكاءً أسمع كل سكان الحي،

فتمتم الرجل بينه وبين نفسه...: «بما أنه يبكي... هذا يعني أنه على قيد الحياة... إذن.... بكيفه»!! فأزاح يديه عنه، وتركه يسقط وحيداً فزاد بكاؤه، ليس على أنفه الذي ينزف، ولا على الدم الذي سال من رأسه نتيجة سقوطه على الأرض، ولكن وبكل بساطه... لأن مثل هذا الشخص... أبوه!!...

أما صاحبنا، فقد انطلق سريعاً، بل وأقصى من السابق، كعدائي السباقات الأولمبية، والذين مهما بلغت سرعة انطلاقتهم في البداية، فإن هذا لا يقارن بسرعتهم عند الاقتراب من خط النهاية، ولأن من يجري بحثاً عن الماء، ليس كمن يجري عندما يجده، وكذلك كان صاحبنا، الذي ازدادت سرعته أضعافاً عما سبق، إلى أن وصل إلى غرفة الجلوس في الأعلى، وفتح التلفاز على القناة الرياضية، التي أخبره صديقه بأن المباراة منقولة عليها وليست مشفرة، وجلس مستبشراً خيراً حين رأى أن الوقت لم يتبق عليه سوى ربع ساعة من مباراة فريقه المفضل، مع فريق شرق أسيوي على نهائي كأس آسيا للأندية الأبطال والمؤهلة نتيجتها إلى مونديال العالم للأندية، والنتيجة ٢/٢ ، وقبل نهاية المباراة بثلاث دقائق أتت ضربة جزاء للفريق الخصم، فتسمَّر خائفاً؛ خشية دخول هذه الكرة المرمى وقبل أن يهم لاعب الفريق الخصم بالتسديد، تذكر صاحبنا أن فريقه تقدم بمباراة الذهاب بالسعودية بهدفين مقابل لا شيء، وهذا يعني أنهم يجب أن يسجلوا هدفين بالإضافة إلى ضربة الجزاء في ثلاث دقائق، وهو أمر شبه مستحيل في كرة القدم، فاسترخى على الكرسي واضعاً يديه خلف رأسه، وخداه لا يكادان يتسعان لشفتيه إثر ابتسامة بادية على وجهه، وتمتم قائلاً...: «إذن... بكفيه»!!!!

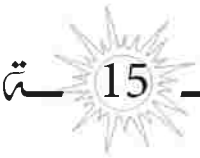

نقل عِرْق

أمسك الطبيب يد الزائر من رسغه، ووضعها تحت الأشعة السينية (X)، وضبط الجهاز في يده، وبحركة سريعة التقط الصورة...

أمسك الطبيب يد زائرٍ آخر، ووضعها تحت الأشعة السينية (X)، وفعل بها مثلما فعل سابقاً...

أمسك الطبيب يد زائر ثالث... ورابع... وخامس... إلى عشرة زوار... وفعل بها جميعاً مثلما فعل بالأول...

شكرهم الطبيب، وأعطى كل واحد منهم المبلغ المتفق عليه لأداء هذه التجربة...

وبدأ يقلب في صور الأشعة التي أمامه، ويتأمل يد كل واحد منهم من خلالها، ثم هز رأسه متأففاً، فقال له الزائر الأول، والذي أبقاه بجانبه وحيداً من دون الباقين: ماذا دهاك يا دكتور؟!...

ـ فقال الطبيب، وعيناه تحدقان في عروق الأيادي التي تظهر من خلال الأوراق السوداء التي أمامه، وكأنها شُعَبٌ متدفقة من قمم جبال عبر سهول منخفضة لتصل إلى مصباتها الدنيا: لا جديد... كلها متشابهة...

ـ فابتسم الزائر بكبرياء: قلت لك يا دكتور.. لا تتعب نفسك في هذه التجربة... فهي فاشلة من أولها...

ـ لا... (ثم التفت إلى صديقه الزائر الأول، والذي يهوى الرسم حتى إنه اتخذه مهنة له، وقال له بإصرار): أنا لا زلت مصراً على أن ما يميزك عن كثير من الناس بالرسم ليس مصادفة... أو موهبة فقط... بالتأكيد هناك شيء ما في يدك... في عروقك... في رسغك... لا أعلم... ولكن هناك شيء معين يجعلك تختلف عن الناس...

ـ (وقام وهو يعدِّل من كم ثوبه الأيمن قائلاً): عموماً... لك سنوات وأنت تحاول أن تصل إلى شيء في هذا الموضوع... ولكنك لم تصل حتى الآن... ولا تريد أن تقتنع أن ما ميزني عن الناس هو مجرد موهبة حباني بها الله لا أكثر... ولكن عقلك المادي القاصر، وتفكيرك العلمي المحدود لا يريد أن يؤمن بقدرة الله والنعم التي يهبها لمن يشأ من عباده...

ـ ونعم بالله... لا تخرجنا من الموضوع، فأصبح مع الوقت بدلاً عما كنت طبيباً يبحث عن كشف ما، أتحول إلى زنديق ينكر وجود الله!!...

ـ حسناً... ولنفترض أنك اكتشفت أن هناك شيئاً ما في يدي... ما الفائدة من كل هذا؟!.....

ـ (فهز رأسه قائلاً): لا أدري حالياً... ولكن بعض الاكتشافات والاختراعات عبر التاريخ الإنساني تبدأ بفكرة بسيطة، وكشف يُهيأ للناس أنه عادي... ولكن مع الوقت يتبين أهمية هذا الاكتشاف... فمثلاً... لو علمنا أن عِرق في يدك مختلف عن الآخرين، وحصلت حادثة معينة لشخص أدى ذلك إلى قطع يده... وكان هذا العرق الذي عندك زائداً...

ألا ترى أنه بالإمكان عمل عملية نقل عِرق لمريض آخر، ربما يحتاج إليه أو حتى لأي جزء آخر في جسمه؟!...

ـ يبدو لي أنك بدأت تهلوس يا دكتور... لكن الخطأ ليس خطأك... بل خطئي أنا الذي طاوعتك... (واتجه إلى خارج العيادة قائلاً): عموماً... أرجو أن تكون هذه آخر مرة تدعوني لتجارب من هذا النوع، فصور الأشعة التي عندك ليدي أعتقد أنها تكفيك عشرة أعوام إلى الأمام... وأنا بصراحة إنسان عندي مشاغل لست متفرغاً لتفاهاتك... سلام...

ثم خرج...

وتركه وحيداً بين صور أشعته، يتأمل فيها غير مقتنع بكلام صاحبه، مصراً على أن هناك شيئاً ما في يد كل رسام، يجعله متمكناً من تصوير الأشياء بيده، بل وعمل خيالات تكون أحياناً... أفضل من الحقيقة...

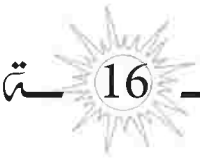

بروجكتور

دخل الابن على أبيه قائلاً بإصرار: إلى متى وكل جيراننا لديهم جهاز «بروجكتور» ونحن الوحيدون في هذا الحي، بل وربما في العالم أجمع لا نملك هذا الجهاز؟!...

ـ فرد الأب مندهشاً من هذا السؤال الذي طرأ على ابنه فجأة: ولماذا تريد هذا الجهاز؟!...

ـ لأن كل جيراننا لديهم مثله... نحن فقط الذين لا نزال نعيش هذا التخلف!!...

ـ وهل هذا سبب كافٍ، حتى نشتري وندخل هذا الجهاز إلى بيتنا؟!...

ـ ماذا تقصد؟!...

ـ أقصد هل لأن جيراننا عندهم هذا الجهاز... نحن ملزمون به؟!...

فحار الابن في الجواب...

وعدل الأب من جلسته، وأكمل قائلاً: يا ولدي... قبل أن تطرح فكرة مثل هذه... أو أي فكرة أخرى... لا تطرحها لأن هناك من سبقنا بفعلها، وكفى!!... يفترض بك وأنت الفاهم العاقل أن تسأل نفسك أولاً...: هل استفادوا منه حتى نأتي به مثلهم؟!... أم عكس ذلك!!... اطّلع على تجارب الآخرين، وانظر ما فائدة هذا الـ«بروجكتور» عليهم من عدمه... ثم بعد ذلك إذا رأيت فائدة منه أبشر بسعدك... فسأكون أول من يشتريه... أو بمعنى أدق، وبما أن هناك قبلنا من استخدموه، فسأكون أحرص من يدخله...

وأمسك الابن رأسه، وبدأ يفكر، ثم قال: ولكني لا أرى ضرراً من ذلك عليهم...

ـ وكيف استنتجت ذلك؟!...

ـ مما أراه... وما أحسه... وما أسمعه...

ـ وما الذي رأيت؟... وما الذي أحسست به؟... وماذا سمعت؟!...

فسكت الابن... فهو لم ير شيئاً... ولم يحس بشيء... ولم يسمع شيئاً... فهو كتلك الكائنات التي لا تسمع... ولا ترى... ولا تتكلم...

فكل ما في الموضوع.... «سمعت الناس يقولون شيئاً... فقلت»!!

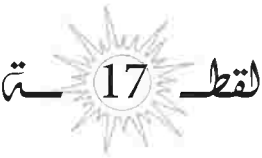

تأثيث...

دخل إلى شقته الحديثة، ووقف يتأمل أثاثها...

«كل شيء موجود... الصالة أثثتها بأفخر أنواع الأريكات... والطاولات المرتكزة في منتصفها قد دفعت فيها مبلغاً ليس بالقليل»... ثم مشى بهدوء، وقد ازداد خيلاء بشقته إلى أن وصل إلى الغرفة التي اختارها؛ لتكون مجلساً للرجال... «أما هذه... فلا أعتقد أن أصدقائي سيجدون خيراً من هذا المكان للاجتماع فيه نهاية كل أسبوع»... وبدأ يعاود النظر فيها بزهو، ليرى مجلساً عربياً جمع بين أصالة الماضي، وتقنيات الحاضر، وإبداع المستقبل... حتى إن آخرها موقد للفحم، وأباريق ودِلال مصفوفة على رفوف بشكل حرف (L) في نهاية زاوية المجلس...

ثم عاد ثانية وتنقل بين غرف شقته، البالغة بالإضافة لغرفة المجلس غرفتين أخريين... غرفة المكتب، والتي وقف فيها طويلاً مزهواً بكتبه التي بلغت المدة الزمنية بين أول كتاب يشتريه حتى هذه اللحظة مدة تقارب خمسة عشر عاماً، فقد كان قارئاً نهماً... فقط!!... وغرفة نوم في آخر الشقة...

وحين دخلها... لم يتغير شيء من إحساسه بالإعجاب بنفسه، وبذوقه الذي يرى أنه رائع في التأثيث، فقد تأمل في السرير، وجالت عيناه في أنحاء الغرفة... الكوميدنو، خزانة الملابس، الفرش الفاخر... إلخ...

ثم عاد إلى الصالة وجلس على الأريكة المقابلة لجهاز التلفاز، مسنداً رأسه عليها، واضعاً يديه خلف رأسه، ماداً قدميه على طاولة كانت أمامه، وبدأ يفكر... «على الرغم من كل شيء... إلا أني أحس أن هناك شيئاً مهما ينقصني لإكمال هذا الإبداع في الشقة»...

وأخذ هاتفه النقال، واتصل على والدته لإخبارها بما ينقصه...

بعد شهرين... دخل إلى قصر الأفراح، وبعد أن أنهى كافة مراسم زفافه... سلام على الأقارب، والأصدقاء، وعَشَاء في القصر، ودخول على الزوجة في قسم النساء... «كم صورة للذكرى»!!... عاد إلى شقته... أدخل زوجته فيها، ماسكاً يدها اليسرى بيده اليمنى، وأجلسها على الأريكة داخل الصالة... إلا أن مكانها هنا لم يعجبه، فأخذها إلى السرير، وأجلسها عليه... ثم ابتعد إلى الخلف بخطوات بسيطة... وبدأ يتأمل فيها، وهي بفستانها الأبيض، وفي عينيها السوداوين، وبشرتها الصافية كماء زلال، وشفتيها الحمراوين كقطعتي عنب، وخديها المتوردين، وكأنهما تفاحتان قد قطفتا للتو...

وبعد أن اطمأن أن كل شيء على مايرام، تنهد بفرح... «أخيراً... اكتمل كل شيء»...

ثم خرج؛ ليكمل السهرة مع أصدقائه!!....

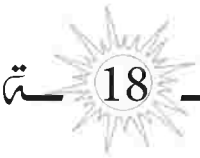

لا شيء يستحق...

ـ لا شيء يستحق...

رددها شيخٌ بينه وبين نفسه، متأملاً في جنازة مرت أمامه، ماسكاً بيده اليمنى بطرف عصاه من الأعلى، واقفاً كتمثال على عتبة منزله لا يتحرك منه شيء إلا يده اليسرى التي تركها تعبث في ذقنه متخللاً بأصابعه أعماق لحيته..

ثم التف داخل منزله، وهو لا يزال يردد...: «لا شيء يستحق... لا شيء يستحق»، واستمر بعينين ساهمتين إلى أن وصل إلى أريكته المفضلة، وجلس عليها، وركز عصاه أمامه بشكل عمودي، منصِّفاً جسده إلى طرفين متساويين، وعيناه مركزتان في العصا متشبثاً بها بيديه كلتيهما كمريض متمسك بالحياة، أو كجندي عاهده قادته بأغلظ الأيمان على ألا يترك سلاحه، ولو كان ثمن ذلك جثته...

واستمر يردد...: «لا شيء يستحق... لا شيء يستحق»...

واقترب منه ابنه الذي أحس بغربة والده عن الناس في هذه اللحظات، بعيداً عن كل وسائل الحياة في تلك البرهة...

وكان يريد أن يسأله عما دهاه، إلا أن نظرات والده الزائغة حين عاد بظهره إلى الأريكة ساحباً عصاه إلى صدره، ملقياً برأسه إلى الخلف، مردداً...: «لا شيء يستحق... لا شيء يستحق»... قد زرعت الرعب في عينيه، وخلقت الرهبة في صدره، من حالة والده الغريبة التي تمر عليه الآن...

«هل هي ساعات احتضار؟!»... تساءل الابن بينه وبين نفسه...

ثم اقترب من والده، وأمسك به من مؤخرة رأسه، وبكل هدوء... أسند والده ـ الذي كان لا يزال ممسكاً بعصاه كآخر شيء يريد أن يكون معه متى ما ضمه اللحد ـ على طرف الأريكة، ورفع ساقيه إلى الطرف الآخر... وفتح أزرار ثوب والده، وهَمَّ بأن يأخذ العصا... إلا أن والده تمسك بها، وكأنه عاشق يرى أن موته بفراق عشيقته، أو ناسك يعتقد أن ترك المحراب خسارة للدارين...

فبدأ القلق يتسلل إلى قلب الابن ببطء من ترديد والده لهذه الكلمة...

فاقترب من أذنه، وهمس فيه بشيء من آي القرآن لعله يهدأ... إلا أن والده زاد إصراراً، وكأنه لا يعي ما حوله...: «لا شيء يستحق... لا شيء يستحق»، ولكن الابن بادل أباه بعناد أكبر بأن استمر في ترديد ما يذكر من كلمات الذكر الحكيم، إلى أن بدأ الهدوء يدخل في نفس الأب، بعد أن أُغمِضتْ عيناه في سكون، وبدأت يداه تتحرك بهدوء إلى العصا، التي سقطت من الأب بمجرد أن ترك آخر إصبعٍ له ملامسة العصا، «وكأن لم تكن بينها وبينه أشياء»!!...

ومر على ذهن الابن شريط من ذكريات والده وصاحب الجنازة، والذي كان من أعز أصدقاء الأب في بدايات حياته، وأيام مراهقته، وسني

شبابه، إلى أن افترقا بسبب مبلغ مالي كبير في تلك المدة فقد ظن أبوه أن صديقه غشه فيه، وأخذ حفنة منه دون أن يعطيه قطعة نقود، حتى ولو قرشاً كان أو هللة، مما سبب قطيعة دامت دهراً؛ لأن الأب كان يرى... «ألا شيء يستحق الاحتيال والنصب... فهذه الدنيا زائلة لا خلود فيها»، بينما الصديق كان يرى أن... «طعم النجاح، ومذاق المال، والصيت... أشياء ممكن أن تدفع فيها كل شيء، حتى ولو بعت أصدقاءك وأهلك والناس أجمعين»!!...

ويبدو أن الابن قد فهم حالة والده، حين مرت أمامه جنازة صديقه القديم، وبعد كل هذا العمر، وهذا العز، والجاه، والمال.... إلا أنه في النهاية... مات كأي إنسان... وربما لا ينفعه مالٌ جمعه بالحلال، فكيف وهو يعرف طريقة جمعه...

ولا ينفعه صيت بسبب مال، خاصة بعدما سمع كلام من مرت بجانبهم الجنازة عنه...

غطى وجه أبيه، مؤمناً بأخلاقياته، مخالفاً وجهة نظره، فبعدما دفن أباه في تلك الليلة التي لفظ فيها أنفاسه الأخيرة، متأثراً بوفاة صديقه ـ على الرغم مما كان بينهما ـ وسمع كلام الناس وشكرهم وثناءهم على أبيه، وقارن بينه وبين ما سمع عن صاحب الجنازة السابقه، تأكد لديه...

أن هناك أشياء كثيرة.... تستحق!!

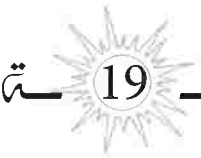

قصيدة...

يا سيدتي...

أناديك نداء المحب...

أناديك نداءً قد تعبت من كثرة مناداتي لك وأنت لا تسمعين...

فمتى تسمعين؟!!

هل صوتي لا يصل إليك عبر المدى....

أم... نون... ألف.. باء... تاء... ثاء... جيم... سين... سين... شين... صاد... طاء... ياء...

يا سيدتي...

كيف يكون ذلك؟!... هاء... باء... ألف... ألف... ألف مقصورة... تاء مربوطة... نون... مفعول به مرفوع... جار مجرور بالفتحة...

هل تسمعين ندائي.... أحبك... أحبك... أحبك... كحب قيس لليلى... وكما يكره يوليوس قيصر خيانة بروتس له، عندما كانوا مجتمعين في

البرلمان الروماني، وقال له بحزن عميق...: «حتى أنت يا بروتس»... ثاء... جيم... مجرور بالضمة... مفعول بالكسرة الظاهرة على آخره... نون... هاء... واو... تاء... ثاء....كنتِ ولا كان الهوى الذي يأتي من جهة الشمال الغربي من جهة اليونان وإلهة الحب فينوس... والحصان يركض وحيداً كأن الإسكندر الأكبر يقوده، حيث فتوحاته...

ـ ميم... جيم... ميم... واو... دال... ذال... زاي... واو... باء... سين...

أما أنا، فلا أزال أحبك وأعشقك كعشق جيفارا للثورة... وكما يحب سوفوكوليس أي شيء... وكما يعشق قيس لبنى... وكما يحب عنترة عبلة... وكما كل شيء يهيم فيك حتى الاستعمار الذي داهمنا في مدة كان هامشياً أدى إلى نكسة...

نون... زاي... ألف...زاي... قاف... ياء... ألف... نون... باء...

كشرفة أتيت تطلين عليّ من على الباب تقطفين وردة من شرفة منزلكم...

آآآه... يا لك من وردة... تقطف وردة...

وبعد ذلك...

تصفيق حار من الجماهير...

ويقوم أحد النقاد، قائلاً بلغة «متكلفة»: في الحقيقة لم أسمع في حياتي قصيدة بهذا العمق... والتركيز... ولا أعتقد أن هناك شاعراً عبقرياً استطاع أن يربط بين حب قيس لليلى، وعشق جيفارا للثورات مثل شاعرنا اليوم... وإني لأرى أن...

واستمر الناقد في مدحه وردحه...

أحدهم في آخر الصف سأل آخر بجانبه: من هذا؟!...

ـ الجالس على المنصة أم المتكلم؟!...

ـ كلاهما...

ـ المتكلم صديق للجالس على المنصة...

ـ والجالس على المنصة؟!...

ـ شاعر «القضية»!!!

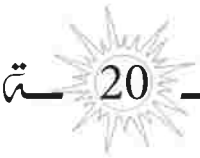

انتحار

وقف على قمة جبل يطل مباشرة على البحر، واضعاً يديه على سياج حديدي يمنع الناس من السقوط... «آه... كم هي قاسية هذه الحياة... كل شيء فيها يحمل رائحة النتن... والعفن... وطعم الجيف... ها أنا الآن في الثانية والعشرين من عمري، وحتى هذه اللحظة لم أستطع أن أخط لنفسي مساراً أمشي فيه، ولا هدفاً أرغب الوصول إليه»... ثم تأمل في البحر أسفل منه، ورأى أمواجه المتلاطمة تزمجر وكأنها تناديه، أو ربما تحذره... تناديه أن تعال، وتحذره من سوء القرار الذي اتخذه...

فتراجع قليلاً، ربما ثلاث خطوات على الأكثر، وإذا به يرى الشمس منتصبة بشكل عمودي، تلهب أشعتها جبينه، فسقطت حبة عرق، ونزلت على استحياء إلى أن توقفت عند حاجبه الأيمن، فمسحها بباطن يده اليمنى مردداً...: «ما الفائدة من هذا التردد والوقوف بلا هدف... بل ما الفائدة من حياة بلا أمل؟!!»... وبدا له ما قاله كاتبٌ عن فكرة الانتحار، وأنها قرار لا يتخذه إلا الشجعان!!... قرار، وإن بدا بظاهره أنه انتهاء حياة، ولكنه في الواقع أفضل طريقة لترك هذه الحياة للجبناء!!...

ثم تشجع... ومشى خطوة... والتقت عيناه بموجة عاتية ضربت الجبل إلى منتصفه الأعلى، وابتل جسمه بشيء من بقايا الماء المالح، فارتد سريعاً إلى الخلف من قوة هذه الموجه.

وتَسمَّر في مكانه ساخراً من نفسه...: «ماذا دهاني خفت من هذه الموجة؟!... أخائف أنا من الموت؟!... إذن لماذا آتي إليه بقدميّ؟!... لا... لا... يجب أن أكون أكثر جرأة في خوض هذه التجربة... فالموت كما يقول بعض الكتاب والمفكرين ليس إلا استمرارًا للحياة، وليس فناء للحياة!!... إذن لماذا الخوف والتردد؟!... فقد جربت هذه الحياة... وأحسست بمرارتها... وبغربتي فيها... فلماذا لا أجرب الحياة الأخرى؟!... فلربما كانت أطعم... وأحلى مذاقاً»...

فتقدم ثانية... وقبض بيديه على السياج، إلا أنه حين رأى الهوة التي تفصل الجبل عن البحر، أحس برهبة شديدة من هول المنظر، فصعبت عليه نفسه، ووضع كوعيه على السياج، وكفيه على خديه، متأملاً البحر وأمواجه العاتية، والتي بدت وكأنها أحست بالملل من تردده... وكأنها تصرخ فيه...: «إما أن تأتي أو تذهب»!!، بل وكأنها غضبت منه ومن وقفته تلك فازدادت قوتها، وكأنها تريد أن تزلزل الأرض زلزالاً، وتنسف الجبال نسفا...: «هل من المنطقي أن أنهي حياتي بهذه الطريقة؟!... لستُ مترددا تجاه فكرة الانتحار... فأنا قررت وانتهى الموضوع، فهذه رحلة أريد إنهاءها وأنتقل إلى رحلة أخرى... ولكن... أليس من الأفضل أن أنتقل بالرحلة على طائرة ركاب درجة أولى، بدلاً من الانتقال عبر حمار بين البراري والقفار؟!... أليس من الأفضل بدلاً من أن أموت بهذه الطريقة... أن أفتش عن طريقة أقل إيلاماً، وأخف تعذيباً؟!»...

وفي أثناء تفكيره... مر سرب من طيور النورس، تهيم في فضاء الله لا حدود تقيدها، ولا قيود تُفرض عليها، فالفضاء وكل ما بين الأرض والسماء، مساحة شاسعة تلعب فيها كيف تشاء، وكما تريد وترغب، فتمتم بينه وبين نفسه...: «آه لو كنت طائراً مثلها، ليت يديّ تتحولان فجأة إلى جناحين، فأهرب من هذه الأرض إلى السماء، من هذه الحياة إلى عوالم أخرى ... ليتني إذا مت تتحول روحي إلى طيرٍ شارد، يسبح في الفضاء كما تسبح الأسماك في البحر... ليتني كنت...»، ثم توقف فجأة... «لماذا ليتني... ليتني؟!... لماذا كل هذا التأخير في اتخاذ قرار كهذا؟!... إنه لا يعطل مثل هذه قرارات، إلا مثل هذا تردد»!!، ثم وبشكل سريع اتخذ قراره، ووضع يديه على مقبض السياج، ورفع قدمه اليمنى، وما إن امتطى السياج، وكأنه راكب دابة، وحين مال بجسمه، وقبل أن يسقط، مسكه أحدهم وصرخ فيه، قائلاً: ماذا تفعل يا مغفل؟!...

- ابتعد عني... (صرخ فيه بشدة).

ولكن الرجل الآخر كان أشد منه قوة، وأعظم خلقةً، فتمكن من سحبه سريعاً، فأوقعه أرضاً، وثبته عليها بيديه، وكأنهما من شدة قوته، وصلابة عظامه، أوتاد ركزت حبال خيمة...

فحاول الشاب الفكاك من هذه المصيدة، إلا أن محاولاته ذهبت أدراج الرياح، فقد خارت قواه، وتعبت عظامه، وعلت أنفاسه، ورمى ناظريه بعيداً عن وجه قابضه، قائلاً: أرجوك... ابتعد عني.

وبعد أن أخذ منه مواثيق غليظة بألا يتهور بعمل ما كان يريد عمله، تركه مستوضحاً عن سبب نيته للقيام بذلك...

فشرح الشاب ظروفه السيئة التي تنوعت من أسباب مالية، واجتماعية، وعائلية، فبادره الرجل باستغراب، قائلاً: وهل هذا سبب يدعوك لإلقاء نفسك في البحر؟!... ألا تعلم أين ستقودك فعلتك؟!

ـ (فمشى الشاب مبتعداً عن الرجل، محاذياً للسياج قائلاً): وأين ستقودني؟!... إلى الموت؟!... مرحباً به إذا كان سينقذني من هذه الحياة الكئيبة!!...

ـ هكذا!!... بكل بساطة... الموت!!... وكأنك تتكلم عن رحلة لا أكثر!!...

ـ وما هو الموت إلا رحلة للانتقال من عالم إلى عالم... وما هو الموت إلا استمرار للحياة... لماذا نحن ننظر إلى الموت على أنه فناء، بينما هو في الواقع مرحلة جديدة نعيشها...

ـ (فابتسم الرجل ابتسامة اندهاش تميل إلى الشفقة): يبدو لي أنك متأثر بما يكتبه بعض الكتَّاب في رواياتهم... (ثم تابع ساخراً)...: الموت... استمرار حياة... الموت مرحلة جديدة نعيشها... الموت... الموت... وكأنهم يتكلمون عن رحلة سياحية إلى جنيف... أو مغامرة لتسلق جبال الهملايا... (وبعد أن سكت قليلاً، تابع ولا زالت ابتسامته تزين شفتيه)...: حسناً... هذا عن الموت... وماذا عن الانتحار؟!...

ـ الانتحار... قرار جريء لا يتخذه إلا الشجعان...

ـ (فقال الرجل وقد فغر فاه، مندهشاً من هذا المنطق): كيف؟!...

ـ إذا كنت أتيت إلى هذه الحياة بغير إرادتي... فعلى الأقل أنا أملك الشجاعة لأن أتركها بإرادتي.

ـ (فزادت ابتسامته اندهاشاً): لا حول ولا قوة إلا بالله... كم عمرك؟!...

ـ اثنتان وعشرون سنة

ـ (فمد يده إليه مبتسماً بشفقة، ممزوجة بسخرية، مع شيء من الاندهاش): تعال يا حبيبي تعال... الظاهر لي أن موضوعك كبير... لم يحتمله عقلك الصغير... أو بمعنى أصح أنت تأثرت بشكل مبالغ فيه بما يكتب وينشر عبر وسائل الإعلام... (وسحبه معه إلى صخرة كبيرة الحجم تكفي لجلوسهما ثم سأله): أتعرف أين ستذهب بعدما تلقي بنفسك في هذا البحر؟!...

فسكت الشاب بداية، ولم يجد إجابة...

ـ (فقال الرجل بهدوء): من أساسيات أي رحلة يا عزيزي، أن تعرف على الأقل أين أنت ذاهب... ولكن يبدو لي أنك لا تعرف إلى أين أنت ذاهب، ولا ممن أنت هارب!!...

ـ أنا هارب من مشكلاتي وذاهب إلى رب غفور رحيم...

ـ غفور رحيم!! هكذا بكل بساطة... (ثم استدرك قائلاً)...: نعم... هو غفور رحيم... ولكنه شديد العقاب لمن لا يرضى بقضائه... وأنت بهذا كأنك غير راضٍ عن قضائه وتريد أن تهرب منه...

ـ ولكن...

ـ تعال معي... (ومشى به معه، وبدأ يحدثه عن نتائج فعلته المحتملة، ومساوئها ساعة من الزمن إلى أن قال): يا عزيزي... لا تنخدع بما يقال عن الموت، وإنه استمرار حياة... وغير ذلك... هو فعلاً استمرار حياة، ولكن... أي حياة؟!... هل هي حياة أبدية سعيدة؟!... أم حياة أبدية تعيسة؟!... لست أخيفك من الموت... فهو نهاية كل حي... ولكن فقط ما أردت أن أوصله لك من الممكن أن أختصره ببيتين قالهما شاعرٌ قديم:

ولو أنَّا إذا مِتنا تُرِكْنا.... لكانَ الموتُ راحةَ كُل حَيّ

ولكنَّا إذا مِتنا بُعِثنا... ونُسألُ بعدَها عن كُلّ شَيء...

أسمعت؟!... كل شيء... فاذكر الله ذكراً كثيراً، ودعك من هذه التفاهات والترهات والخزعبلات... أما ما يقال عن الانتحار وإنه قرار شجاع وغير ذلك، فهذا لعمري أغبى منطق يعتنقه إنسان، وأفقر كلمة ينطقها لسان... فالانتحار أجبن طريقة للهروب من أي مشكلة، أيا كانت مرحلتك العمرية، ألم تسمع بقول شاعر قديم:

إذا لم يكُن من الموتِ بدٌ... فمِنَ العَارِ أن تَموتَ جبَانا...

ـ بلى... ولكن... ما علاقته بموضوعنا؟!...

ـ علاقة وطيدة... إذا استبدلت الكلمة الأخيرة...

ـ بماذا؟!...

ـ إذا كان من الموت بدٌ... فمن العار أنت تموت...

منتحرا.

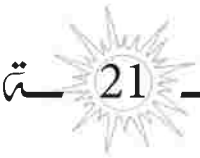

تشجيع!!...

استدعاه المدير، قائلاً له: لقد رشحتك؛ لتكون ممثلاً لشركتنا في المؤتمر القادم...

ـ (قال وقد أحس بشيء من السعادة لهذا التشريف): مشكور، الله يسلمك...

ـ (وقال له المدير محذراً): لكنه انتبه... لا تخجّلنا أمام الناس... فهذا مؤتمر مهم جداً على أساسه نبني سمعة للشركة...

ـ إن شاء الله أكون عند حسن الظن طال عمرك...

ـ أتمنى ذلك..

وخرج الموظف، وبدأ يستعد لهذا المؤتمر بتوفير كافة المعلومات الملائمة عن طريق المراجع العلمية، والكتب ذات العلاقة، دون أن يغفل أهمية الإنترنت...

وبعد أيام...

قابله المدير في أحد ممرات الشركة: كيف أمورك؟... مستعد إن شاء الله...

ـ الله يعين يا رب...

ـ (ثم هز سبابة يده اليمنى، قائلاً): لكن احذر... لقد سمعت الكثير عن ترددك، وعدم اتخاذك القرارات الصحيحة... فرجاء لا تحرجني أمام المسؤولين...

ـ (فابتسم بأدب): ولا يهمك... لن تندم بمشيئة الله...

وبعد أسابيع أخرى، وقف المدير على رأسه فجأة، وهو منهمك في أداء عمله، قائلاً له: المؤتمر لم يتبق عليه إلا أسابيع قليلة... وأنا قد أتتني أخبار عن خوفك من مقابلة الجمهور... أرجو ألا يكون ذلك صحيحاً...

ـ (وكان على مكتبه، حين أنزل رأسه بأسى، وبعد أن مسح وجهه بيده اليسرى تنهد، قائلاً): إن شاء الله إنك وضعت ثقتك في رجل...

وفي يوم من الأيام...

كان جالساً مع أصدقائه في أحد المقاهي، إذا باتصال على هاتفه النقال من المدير، الذي قال له مباشرة دون حتى أن يلقي السلام: المؤتمر باقٍ له أسبوع... كيف أمورك؟!...

ـ (فتنهد بقرف، وعيناه ناحية أصدقائه، الذين أحسوا بحجم «المأساة»!! التي وضع نفسه فيها، قائلاً): كل الأمور طيبة... كل ما أريده منك الدعم، والدعاء لي الله يحفظك...

ـ الله يستر!... (ثم أقفل السماعة)...

فوضع صاحبنا هاتفه النقال على الطاولة، مستغرباً من هذا المدير... «هل هذه طريقة لرفع المعنويات؟!.... والله إنه عيشني تحت ضغط نفسي أكثر مما كنت أتوقع»!!...

وفي يوم المؤتمر...

جلس جميع الزوار، ومن ضمنهم منسوبو شركات مختلفة على المدرج، بينما كان ممثل كل شركة يقوم على المسرح، ويلقي محاضرة حول أهداف الشركة، ومهامها الرئيسة، مغلفين ذلك بأساليب شيقة، وطرق متنوعة للإقناع بأن كل شركة أفضل من أختها...

وفي أثناء ما كان البرنامج يمشي وفقاً لما هو مخطط له، كان المدير بجانب موظفه يحذره، وينبهه من الوقوع في الأخطاء، ويزيد على ذلك بأن يمدح ممثل كل شركة تأتي، بأن يقول:... «انظر إلى هذا وروعة أسلوبه... ليتك تكون أفضل منه... أو على الأقل مثله»... أو.... «انتبه... لا تكن مثل هذا، وتعود إليك «فوبيا» الجماهير المعروفة عنك!!»... ثم أخذ المذكرة التي يريد أن يشرح منها موظفه، وهمس فيها متفاجئاً: ما هذا؟!... أين صفحة الطموحات؟!...

- (فقال، مرتبكاً): أي طموحات؟!...

- أي طموحات؟!!.. طموحات الشركة التي اتفقنا عليها وأهدافها وسياساتها... الكل وضعها عنده إلا أنت!!...

- يا طويل العمر...

ـ (فقال مقاطعاً): أي طويل عمر وأي بطيخ!!... أنت ناوي تحرجني أمام الناس!!... لكن الخطأ ليس خطأك... إنما هو خطئي أني رشحتك... كان المفروض أن أسمع للكلام الذي سمعته عنك وأرشح غيرك...

واستمر المدير في تأنيبه، وتوبيخه بهمس، مع أن دور الموظف للعرض لم يبق عليه سوى دقائق معدودة، أما صاحبنا الموظف... فكان يستقبل الكلام كبالون يُنفخ بهدوء... وبدأت أنفاسه تسابق دقات قلبه... فدور اقترب... وقلبه اضطرب... ومديره يزيد من موسيقاه والطرب!!...

وبدأ الكلام يزيد... والهمس يرتفع تدريجياً، وصاحبنا عيناه للأرض بقرف، حاضناً رأسه بيديه الاثنتين من أثر صداع بدأ ينتابه، من أثر هذا... «التشجيع»!!.... «وشد الأزر»!!... وقبل أن ينفجر رأسه، انفجر هو عليه: يا أخي، الله لا يبارك فيك ولا في شركتك... بدلاً من تشجيعي وشد أزري تأتي لتنهي ما بقي لي من ثقة... بالله عليك، حتى لو اكتشفنا أخطاءالآن... هل هناك وقت لتعديلها؟!... ولو في بالنا اقتراحات هل هناك وقت لوضعها؟!... يا أخي، تباً ثم تباً ثم تباً لأمثالك مدراء لا ينقدون إلا في الوقت الضائع... ولا يأتون إلا بالبدائع من الذم والفلسفة في أوقات ليس لها داع... (ثم رمى الأوراق التي كانت معه في حضن المدير، وقال بعصبية لم يشهدها مديره منه في حياته)... خذ أوراقك واطلع ناقش...

ثم غادره وذهب!!... أما المدير... فقد تسمَّر من هذا الموقف المفاجئ، ولم يعد يدري ماذا يفعل... وفي أثناء سكوته، ووجومه... نادى مذيع الحفل، على اسم الشركة....

إلا أن المدير... قام بهدوء... وانسحب من المؤتمر... فأخشى شيء كان يخشاه المدير في حياته... هو... الجمهور !!!

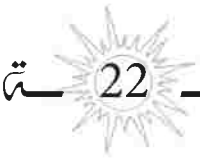

حلم

اتصلت على أحد مفسري الأحلام، متعجبة من حلم قد زارها قائلة: يا شيخ، حلمت أن زوجي مات... ما تفسير هذا الحلم؟...

فتنحنح الشيخ، وبعد أن شكر الله وأثنى عليه بما يستحق، صلّى على سيد الأنام محمد بن عبدالله ﷺ، قال: يا بنيتي،... عادة الأحلام التي يكون فيها وفاة، درج الناس على تفسيرها بأن هذا يعني إطالة عمر المتوفى في الحلم... لذلك أرى - والله أعلم - أن هذا يدل على طول عمر زوجك إن شاء الله والله أعلم...

- المذيع: شكراً فضيلة الشيخ،... الاتصال الآتي...

وإذا بصوت الزوج، قادماً من الخارج: يا هيييش...

أقفلت السماعة، متأملة في طلعته «البهية»!!

فتمتمت قائله: الله يعين!!...

ثلاث حواس... وعقل!!

اتخذا قراراً، ثم اتجه إلى سريره، ونام...

وبعد ساعات من نومه، وفي خضم هذا الليل البهيم... والسكون الرهيب... همست العين للأذن...: «تباً لك... فلولاك ما كان حدث ما حدث!!»...

ـ فأجابت الأذن: وما علاقتي أنا بذلك؟!...

ـ أنت أساس المشكلة... فصاحبنا لو لم يسمع عن طريقك ما سمع، لما كان اتخذ هذا القرار الأهبل!!...

ـ ولماذا لا تلومين نفسك؟!... فهو قد رأى الموضوع من خلالك... وكما قيل قديما...: ليس من سمع كمن رأى...

ـ نعم... ولكن ليته استخدم الوسيلة الصحيحية للرؤية... فهو قد رأى بأذنه التي هي أنتِ، وليس بعينه التي هي أنا...

وهنا انتبه القلب لهما، وقال بغضب: أنتما السبب... وكلاكما يتحمل المسؤولية... هو سمع عن الموضوع وهذه مسؤوليتك (مشيراً إلى الأذن)، ثم ذهب ورأى بعينه وهذه مسؤوليتك (مشيراً إلى العين)... ثم...

ـ (وهنا قاطعته العين): ولكن ما علاقتي إذا رأى الموضوع من خلال أذنه وحكم من خلالك أنت!!...

ـ (فقال القلب متفاجئاً): أنا؟!... وما علاقتي بالموضوع أيتها المغفلة؟!...

ـ أنت أس البلايا... فهو لو استخدم عقله لكان خيراً له ولنا... ولكنه مع الأسف استخدمك أنت وورطنا معك!!...

ـ وهل منعته؟!...

ـ نعم منعته... فأنا لا زلت أتذكر كيف أنك تغلغلت في خلايا جسمه حتى وصلت إلى عقله فغطيته كالبحر وأعميته، فأصبح لا يرى إلا ظلاماً... فهو إذن سمع من خلال الأذن وحكم من خلالك وأسوأ القرارات تلك التي تؤخذ عن طريق السماع والعاطفة... وكلاهما مرجعيتهما لكما أنتما...

ـ (وهنا تدخلت الأذن): أرى أنكِ كمن «رمتنا بدائها وانسلت»... وأصبحت تلقين اللوم علينا... وكأنكِ لا علاقة لكِ بشيء... وكأن العقل والعين هما أساس كل نجاح، أما السمع والعاطفة فأساس كل فشل...

ـ وهل عندك شك في ذلك... (جاوبت العين)...

ـ نعم عندي مشكلة... واسألي القلب...

ـ (وقالت العين، ساخرة): القلب؟!... أتريدين أن أسأل القاتل عن القتيل؟!... أنتِ وإياه كمن «يقتل القتيل ويمشي في جنازته!!»... فكيف تريدين أن أتأكد منك أو منه؟!...

ـ (وهنا تدخل القلب): وهل قتلنا أحداً حتى نمشي في جنازته؟!... لماذا أنتِ مكبرة الموضوع... ثم هو الذي اتخذ قراره... نحن غير مسؤولين عما فعل!!...

ـ ومن قال لكما: إننا غير مسؤولين، ونحن فريق واحد في جسد؟!...

ـ (فقالت الأذن ساخرة): أراكِ تدافعين وتناقشين وحدك وترمين كل اللوم علينا أنا والقلب... (ثم استدركت)... ثم تعالي هنا.. ألا ترين أنكِ حكمتِ على سوء القرار، وأنتِ لم تكوني حاضرة... فكيف عرفت أنه سيّء؟!...

ـ (وهنا صرخت العين، وكأنها مسكت كلمة على الأذن): الحمدلله... ها أنتِ قلتها...: لم أكن حاضرة... (ثم تابعت بثقة)...: وأي قرار أغيب عن المداولة فيه بالتأكيد، فسيكون قراراً خاطئا... بل والأدهى أن القرار عندما يكون نابعاً منكما أنتما بالذات، فقل على الدنيا السلام...

ـ (وهنا زمجر القلب): أف... قد أزعجتنا بكثرة اللوم... وعموماً كلامنا ليس معكِ... نحن نتكلم مع من هو أعلى منك... نادي العقل؛ ليتكلم معنا ونأخذ رأيه في الموضوع...

وبعد أن اتفقوا على مناداته؛ ليحكم بينهم فيما اختلفوا فيه، قال لهم بعد أن نفض الغبار عن نفسه، ومد يديه إلى جانبيه، ثم تثاءب، قائلاً: آه... لا تسألوني عن أي شيء... فقد كنت غائباً تلك اللحظة... (ثم استدرك قائلاً)...: بل حتى أكون أكثر دقة... غائباً طوال عمري... أو ربما مغيباً لا أعلم... المهم... لا تنتظروا مني شيئاً هذه اللحظة... فافعلوا ما بدا لكم... أما أنا... فسأعود للنوم إلى أن يتذكر صاحبنا أن له عقلاً... فيستخدمه...

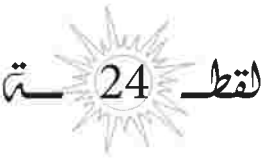

العجلة

فجأة وبدون سابق إنذار، انفكت من أحدهم السلسة التي كانوا يربطون بها العجلة...

مشت العجلة بهدوء، وهم يتابعونها بهدوء أكثر أمام أعينهم...

اتخذت العجلة طريقاً كانوا يعرفون نهايته، ومع أنه كان قريباً... إلا أنهم «يرونه بعيدا»...

كانت العجلة تقودهم، وهم يمشون خلفها الهوينا «كما يمشي الوجي الوحل» إلى الهاوية نفسها التي سقط فيها أبناء عمومتهم قبلهم...

ومع ذلك..

لا أحد تقدم منهم وأسرع قليلاً لإمساك العجلة لتغيير مسارها، أو إيقافها على الأقل... فالهاوية بالنسبة لهم لا تزال بعيدة...

ومع أن الهاوية هي نهاية طريقهم، إلا أن بعضهم لا يزال رافضاً هذه الفكرة... «فنحن خير أمة أخرجت للناس» ولا يمكن أن نقع... كما كانوا يرددون...

أحدهم قال في كسل...: «إنه الطريق نفسه»... فرد عليه آخر، وهو يتأمل العجلة ببلادة...: «ربما أن هذه العجلة ستتجه إلى النهاية نفسها»... وقال آخر...: «كلا... لا تتشاءموا... فنحن لسنا كغيرنا... باستطاعتنا تغيير اتجاه العجلة متى شئنا!!، أحدهم قال وهو يحك رأسه بخمول... «عموماً لا تفعلوا شيئاً... فإن كان طريقاً مختلفاً، فنحن في أمان... وإن كان الطريق نفسه، فإنه لا يزال بعيداً... (ثم تابع ضاحكاً)...: وعلى رأي الشيخ الذي سئل عن الحشيش، فأجاب قائلاً..: إذا كان حراما، فنحن نحرقه... وإذا كان حلالاً، فهانحن نشربه... هاهاها»!!...

استمرت العجلة تزيد من سرعتها نتيجة شدة الانحدار...

أما أصحابنا، فكان بينهم وبين العجلة تناسب عكسي... كلما زاد انحدارها... زاد برودهم...

«فالطريق لا يزال بعيداً... والعجلة لن تسقط»!!...

زادت العجلة من سرعتها... وزاد هؤلاء تراخيهم... بل إن بعضهم لا يزال رافضاً فكرة سقوط العجلة، وهناك من هم أكثر عقلانية نوعاً ما، مطالباً بالإمساك بها، أما أكثر هم حكمة فكان يطلب من الآخرين تغيير اتجاهها!!...

كانت العجلة تقودهم إلى نهايتهم... علم بعضهم بذلك دون أن يتحرك... وجهل بعضهم الآخر ذلك، حتى وإن تحرك...

علم بلا حركة... وحركة بلا بركة أدت إلى سقوط أبناء عمومتهم في الهاوية نفسها قبلهم...

قيل يومها عن أبناء عمومتهم... «اجتهدوا فأخطؤوا... فلهم على الأقل أجر الاجتهاد»...

ولكن ماذا سيقال عمّن يمشي في الطريق نفسه، وهو يعلم أنه يقود إلى الهاوية، ومع ذلك لا يتحرك ولا يتقدم ولا يتراجع عن أي خطوة... بل إنه يمشي في ذات الاتجاه، خلف العجلة نفسها إلى الهاوية نفسها!!...

ومع ذلك لا زالت العجلة تسير... ولا أحد يتحرك...

المرحلة (-١)...

كنت في مكتبي أفكر في أمور الشركة، واضعاً رأسي بين يديّ متكئاً بهما على طرف الطاولة، حين دخل عليّ العم أحمد، الذي يعمل مراسلاً للشركة، وأشياء أخرى من ضمنها أنه كان قهوجياً أيضاً... وبعد أن وضع فنجاناً من القهوة كنت قد طلبته منه، وربما كان قد لاحظ هماً ركبني، وقلقاً قد أعماني عن رؤيته حين قال: لعل المانع خير يا طويل العمر؟!...

ـ (فتنهدت، وكأني لم أصدق خبراً أن يسألني أحد ـ أي أحد ـ لأفضفض عما بي، وقلت بقرف): وأي خير يأتي... وأنا أرى شركة «جورج» تتقدم بدل الخطوة عشرة... بينما نحن نراوح مكاننا.

ـ وما الذي يمنعنا يا طويل العمر... (ثم تدارك على استحياء)...: أقصد يمنعك يا طويل العمر.

ـ (فابتسمت، قائلاً): لا يهم الضمير... يمنعنا أم يمنعك... فنحن في النهاية نمثل شركة واحدة... عموماً، وإجابة على سؤالك، فأنا لا أعرف... فقد طبقت كل الخطوات التي يعمل بها... والتي دلَّني هو شخصياً عليها... ومع ذلك... لم أفلح...

ـ (فابتسم، قائلاً): اسمح لي سيدي... فأول أخطائك... أنك قلّدت، ولم تبتكر...

ـ (فقطبت حاجبيّ مستغرباً): وهل هذا يعني أن هناك أخطاء أخرى؟!...

ـ إذا سمحت لي يا طويل العمر... كثيراً!...

ـ وما هي؟!...

ـ إن بدايتك كانت خطأ... وما بني على باطل... فهو باطل...

وبعد أن شدّني كلامه، عدلت من جلستي، وطلبت منه الجلوس، وكنت منصتاً له باهتمام، حين تابع قائلاً: فأنت يا سيدي، تعتقد كما يعتقد الكثيرون... أنك يجب أن تبتدئ من حيث انتهى الآخرون... كلام جميل.. لا غبار عليه... ولكن المشكلة في التطبيق....

ـ وكيف ذلك؟!...

ـ سيدي... لتبدأ من حيث انتهى الآخرون... يجب في البداية إزالة الشوائب... (وبعد أن لاحظ استنكاري، واستغرابي من كلامه، استطرد قائلاً): يا طويل العمر... هل سمعت في حياتك عن سمين تحول إلى رشيق... هكذا من الـ «باب للطاق»؟!... أم أنه بدأ ببعض التمارين الرياضية... ودخل نادياً وعمل مع مشرفين، إلى أن وصل إلى ما وصل إليه من رشاقة؟!...

ـ طبعاً أكيد دخل نادياً، وعمل مع مشرفين، إلى آخر ما ذكرت...

ـ إذن هو بدأ من المرحلة (٠)، إلى أن وصل إلى المرحلة (١)، ثم (٢)، ثم (٣) إلى أن وصل إلى هدفه؟!... صح؟!...

ـ (فقلت وكأني أتيت باكتشاف جديد): طبعاً صح...

ـ (فقال بثقة): وهذا أول أخطائك... لأن الإجابة ببساطة... خطأ... لأنه لم يبدأ من المرحلة (٠)، بل بدأ من المرحلة (-١)، وهي إزالة الشوائب، التي هي بالنسبة له الشحوم المتكدسة، واللحوم المتورمة، وأي عيب كان به، سواء أكان خلقيا أم مكتسبا ولذلك وبعد أن نجح في تخطي المرحلة (-١) دخل في المرحلة (٠)، ومن ثم ما أعقبها من مراحل... أتعرف لماذا؟!... (وقبل أن يترك لي فرصة للإجابة، أكمل قائلاً): لأن هذه الشوائب ستعيقه من تخطي المرحلة (٠)، وربما يصل إلى (١) بالكثير، ولكنه بالتأكيد لن يصل إلى المرحلة التي بعدها لأنه بسبب هذه الشوائب سيكون ككرة أُسقِطت داخل صندوق زجاجي لتبدأ بالارتطام بقوة بين جدرانه دون هدف، أي بمعنى آخر سيكون مكانك راوح، من (٠) إلى (١) ثم من (١) إلى (٠)... وهكذا كلما أراد أن يتخطى مرحلة إلى مرحلة أخرى، أعادته الشوائب إلى الخلف...

وبعد أن لاحظ وجومي واستغرابي من كلامه، تابع قائلاً: وكذلك الشركة... هناك مجموعة من الموظفين ومع الأسف بعضهم أصحاب قرار، زيادة عدد ليس إلا، بل ليتهم زيادة عدد فحسب، ولكنهم مع الأسف طابور خامس إن جاز التعبير، فهؤلاء كلما أردنا أن نتقدم خطوة... أعادونا عشراً إلى الوراء بطرح قضايا وأمور لا معنى لها، وكلما أردنا أن نسير إلى الأمام يوماً، دفعونا إلى الوراء دهوراً... إنهم شوائب يا سيدي، يجب إزالتها... أو تغطيتها على الأقل، فهم مثل الحصى والأتربة الموجودة على أرض فضاء

تملكتها؛ لتبني عليها منزلاً، فمن الطبيعي أنك قبل أن تبني البيت، فإنك سوف تزيل هذه الشوائب أولاً... حجارة... تراب... شحنات... وربما جبال صخرية... ثم بعد ذلك تقوم بمرحلة «الدفان» لتسوية الأرض، وهذه هي المرحلة(-١)، وبعد ذلك تنتقل للمرحلة (٠) وهي وضع الأساسات وصب الأعمدة، وبعدها تنتقل للمرحلة (١)، و (٢)، و (٣)...إلخ، إلى أن يكتمل المبنى رفعاً وتشطيباً وزخرفة... وأخيراً... سكناً... ولا تعتقد أن هذا الكلام ينطبق فقط على الرياضي، أو المباني، أو الشركات فقط، بل إنه يكاد ينطبق على كل شيء... الأمم... المجتمعات.. وكل شيء... فمن أكبر الأخطاء التي يقع فيها بعضهم هو اعتقادهم أن بداية التقدم تبدأ من حيث انتهى الآخرون فقط، والخطأ الأكبر اعتقادهم أن النجاح يبدأ من المرحلة (٠)، متناسين أهم مرحلة في أي مشروع من وجهة نظري... وهي المرحلة (-١)... أو بمعنى آخر...: «إزالة الشوائب»!!...

ثم سكت...

وبعد برهة صمت، أحسست في الوقت نفسه بأني بدأت أقتنع بكلامه، فسألته: وكيف أزيل هذه الشوائب؟!...

فأخذ الصينية بعد أن ترك فنجان القهوة على الطاولة، وقام قائلاً: أنا لست إلا قهوجياً بسيطاً... قلت رأيي... وأترك لك التطبيق...

وغادر مكتبي تاركا إياي في حيرة من أمري، مندهشاً من هذا المنطق الذي تكلم به «العم أحمد» لأول مرة، والذي ربما زادته السنون علماً وأسلوباً ولذة في المعاني!!

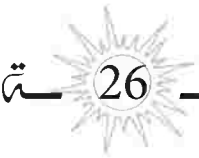

الفارس

ذهب إلى مزرعته، واتجه مباشرة إلى إسطبل خيوله، وأخذ فرساً كان قد اشتراها بالأمس فقط، ليمتطيها لأول مرة...

تحسس الفرس بيديه أولاً، مزهواً فيها، مبدياً إعجابه الشديد بها... شعرها الأشقر، رقبتها المشوقة، ساقها الأماميتان الطويلتان، وقدماها الخلفية المرتكزة على الأرض، لدرجة أن ذيلها الناعم قد لامست أطرافه الأرض.

لا يعرف لماذا تذكر زوجته، وشعرها الحرير المنساب حتى نهايته إلى أسفل الظهر عندما رآها أول مرة في بيت والدها، فقد كانت أيضاً جميلة، تلين الصخر بفتنتها، آية في الحسن والروعة... لذلك ودون تفكير بأي شيء آخر... اختارها... وقرر الارتباط بها...

امتطى فرسه التي كانت كأي فرس عنيدة في البداية، وكأنها تختبر فارسها، وحاول أن يمشي بها بهدوء، ولكنها كانت مصرة على رأيها، فإذا مسك العنان متجهاً بها إلى اليمين، عاكست ما يريد متجهة إلى اليسار، وإن طاوعها ومشى معها إلى اليسار، غيرت رأيها وكأنها تمتحنه؛ لترى فروسيته متجهة إلى اليمين، وفكر بينه وبين نفسه... «بما أن الأرض

شاسعة... ونحن لا زلنا في البداية فسأطاوعها على ألا أسمح لها بذلك مرة ثانية»...

عادت به ذكرياته إلى أيامه الأولى مع زوجته التي كانت لا تقل عن فرسه عناداً إن لم تزد، متذكراً مواقف معينة معها، وابتسم ابتسامة ساخرة... «سمحت لزوجتي... ألن أسمح لك أيتها الفرس اللعينة من باب أولى»...

وكز بطن فرسه بكعبيه؛ بغية الهرولة الخفيفة، فبدأت الفرس تطاوعه فيما أراد هذه المرة، وكأنها تريد أن تقنعه بأنها قد أطاعته...

قالت له زوجته في أحد الأيام: أنت سيدي... وتاج رأسي...

فانشرح صدره بتلك الكلمة كثيراً، وأحس أنه ملك زمانه...

فأعظم شيء يحس به إنسان على وجه هذه البسيطة أن يكون ملكاً متوجاً على عرش بيته وأهله...

أرخى العنان قليلاً لفرسه التي فهمت من هذا أنه قد بلع الطعم، وعرفت أن فارسها ليس كما هو متوقعا، وعلى الرغم من فروسيته التي يشهد بها القاصي والداني، إلا أن هذه الفرس كانت نوعاً آخر يختلف عن جميع الخيول والأفراس التي امتطاها، فهي لا تزال صغيرة في السن، معتادة على الحرية، عاشقة للانطلاق، وقد خانته خبرته هذه المرة في التحكم بفرسه، وربما أن غياب زوجته هذه المرة، وجلوسها في بيت أهلها، بعد خلاف نشب بينهما بعد عشرة لا تزيد عن سنتين، منعه عن التركيز للتحكم بفرسه، وبدا عقله حائراً بين مشكلاته الزوجية، وأسبابها وكيفية

إيجاد حلول لها، وبين التحكم بهذه الفرس التي أخذت بالانطلاق دون وعي وتركيز...

حاول أن يشد العنان بكل ما أوتي من قوة، إلا أن الفرس رفعت ساقيها الأماميتين إلى أعلى نقطة من الممكن أن تصل إليها، فخشي السقوط على الأرض، ففقد توازنه لأجزاء من الثانية، إلا أنه تمكن من السيطرة على نفسه والبقاء على ظهر الفرس على الأقل... واستكملت الفرس انطلاقتها وكأن ظهرها لا يحمل بشراً، بل بدت من شدة سرعتها، وكأنها تريد أن تسقط وزراً من على ظهرها لا تريد أن تقابل به رب العباد يوم القيامة... بل وكأنها تريد أن تطبق ما ورد في السنة النبوية من الإسراع في حمل النعش إلى القبر، فإن كان إلى الجنة، فقد أُسرِعَ به إلى خير، وإن كان إلى نار ـ والعياذ بالله ـ فقد أسقطنا عن كاهلنا خباثة في هيئة إنسان، وفارسنا المسكين لا يعلم ما إذا كانت فرسه تعده من فئة الطيبين، أم فئة أصحاب الخبائث... لكن كل ما يعلمه أنه قد وصل إلى نقطة يصعب فيها التفاهم مع هذه الفرس، خاصة أنها اتجهت إلى نهاية المزرعة، والتي تقف على حافة وادٍ سحيق، فأصبح صاحبنا ما بين خيارين، أحلاهما نار!!.... إما أن يسقط معها، أو تسقط وحدها...

واتخذ قراراً سريعاً، وإن كان صعباً، فقد رمى كل شيء وراء ظهره، فرسه الغالية مادياً، والتي لم يهنأ بها، وكذلك سمعته المشهودة له بالفروسية، بل وعظامه التي من المحتمل أن تتكسر، وقد يصيبه مكروه بسبب هذا القرار...

إلا أنه قرر... الانفصال عن فرسه!!...

فقفز سريعاً، تاركاً فرسه تنطلق دون وعي إلى أن سقطت في الوادي!!...

تحسس نفسه من أثر السقوط... تورمات شديدة بالظهر، وكدمات مزعجة عند ساقيه، وآلام عظيمة أسفل الظهر... إلا أنه، وعلى الرغم من ذلك... لا توجد كسور ولله الحمد، فقد استطاع أن يقف على قدميه، صحيح، إنه يعرج... ولكنه على الأقل يمشي... صحيح، إنه يتأوه... ولكنه على الأقل يتكلم...

وقف على حافة الوادي، وأطل على فرسه، والتي لفظت أنفاسها الأخيرة من جراء سقوطها المروع...: «فرسي العزيزة... لم أكن أرغب لك في هذه النهاية... ولكنك أنتِ التي اخترتِ... صحيح، إني تألمت... ولكني لا زلت أتنفس... لا زلت على قيد الحياة... أما أنتِ فقد انتهيتِ... لست إلا ذكرى... في حياتي...

فرسي العزيزة... ربما أكون خسرتك... ولكنكِ خسرت أكثر... لأنك ببساطة... خسرتني».

الجبناء

اتفق مع مجموعة من رفقاه على إنهاء سطوة الظالم على قومه، وأخبر بذلك الجميع الذين أيدوه على خطوته الشجاعة...

وحين حانت ساعة الحقيقة... تخاذل قومه ورفقاه، فقد كانت نظرات الظالم المرعبة، والتي تطلق شواظاً من نار، سبباً كافياً لتراجعهم...

فهب وحده دون معرفة منه بتخاذل قومه... فمسكه جنود الظالم، وطرحوه أرضاً فقتلوه، ثم صلبوه وعلقوه في أعلى موقع في القرية؛ ليكون عبرة لمن تسول له نفسه في مخالفة الظالم...

اجتمع الناس ليشاهدوه، وفي أثناء ذلك... مر أحدهم بالقرب من الجمع، وأطلق نظرة إعجاب إلى هذا المصلوب، وأعاد ناظريه إلى بقية القوم، فالتفت إلى شخص بجواره، وقال يائساً: رحمه الله... كان شجاعاً... ولكن غلطته الوحيدة أن دافع عن جبناء... وكانت تلك النهاية المنطقية... لمن يدافع عن الجبناء...

الإداري

أمضى عمره مسؤولا كبيرا في إحدى الإدارات، يطبق في إداراته رغبة الجماهير، دائما ماكان يتبع كلام رجل الشارع...

خياراته... نابعة من قراءاته المختلفة لمنتديات الإنترنت، وكلام بعض الكتاب الصحفيين في أعمدتهم...

اكتسب الشعبية التي أرادها مدة من الزمن، كان في نظر الكتاب والجماهير أفضل إداري مر على البلاد في جهته، موافقاً لكافة التيارات، ماسكاً العصا من المنتصف...

قرارات حاسمة اتخذها دون الرجوع للمقربين منه من أهل اختصاصه، مكتفياً بما يطّلع عليه من آراء الناس...

وفي إحدى القضايا الحاسمة، والناتجة من أحد القرارات السابقة، ثار عليه الناس في وسائل الإعلام المختلفة، متهمينه بالفساد والاستغلالية.

انتهت القضية بإقالته من منصبه، وبلقب...: «أسوأ إداري مر على البلاد في هذه الجهة»...

جلس وحيداً في بيته، متذكراً كلمة أحد أصدقائه المخلصين، محذراً له من مغبة قرارته الناتجة من محاولة إرضاء الناس، والتي هي غاية لا تدرك، أكثر من إرضاء عقله، وضميره، وخبرته...

فقد قال هذا المسؤول ـ السابق ـ ذات يوم لصديقه: ولكن... ماذا تريد مني أن أفعل؟... فهذه آراء الناس ورغبة الجماهير...

ـ جميل جداً أن تهتم بآراء الناس ورغبة الجماهير... ولكن الأجمل أن تأخذ قراراتك بناء على دراسات واستشارات من أهل الاختصاص والخبرة مع عدم إغفال رغبات الناس، لما يحقق المصلحة العامة للمجتمع، وليس تحقيقاً لرغبة فلان أو علان... صحيح ربما سيكون في أنفسهم شيء عليك مؤقتاً... ولكن بعدما تتضح نتيجة قراراتك في المستقبل، فسيذكرونك بالخير... وليكن أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - في حروب الردة نموذجاً لك في مثل هذه القضايا... فقد خالفه كبار الصحابة.. ولكنه أصر على رأيه ليس ديكتاتورية منه... ولكن لأن عنده رؤية مستقبلية للقضية، أبعد مما كان يفكر الصحابة الآخرون - رضي الله عنهم - وعنا أجمعين... وقد أثبت التاريخ صحة الرؤية التي انتبه لها أبوبكر رضي الله عنه بمرور الأيام... (ثم تابع قائلاً)...: لقد قلتها لك مراراً، الأغلبية ليست دائماً على حق... وسأضيف عليها كلمة أتمنى أن تكون مطبوعة في ذهنك...: الإداري الناجح هو الذي يقود الجماهير... لا الذي تقوده الجماهير!!...